

جامعة الأزهر

كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية

حركة الإصلاح البروتستانتي وصلتها بالإسلام

دكتور

خالد محمد حديي صميدة

مدرس الدعوة والثقافة الإسلامية
بكلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، ترہت عن الشريك ذاته، وتقدست عن مشابهة الأغيار صفاته،
بالي معروف، وبالإحسان موصوف، معروف بلا غاية، وموصوف بلا نهاية، وأصلي
وأسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فقد كانت الكنيسة الكاثوليكية هي المسيطرة على مقايد الأمور في العالم المسيحي لعدة قرون، وكانت تعتبر رمزاً لوحدة المسيحيين، إذ هي الكنيسة العامة التي ينضوي الجميع تحت لوائها، ولم يجرؤ أحد أن ينال من مكانتها، فرجحها قد أعطتهم الكنيسة حق العصمة فلا يخطئون قط، ولم يحدهم غفران الذنوب، وفهم الأسرار الغامضة التي لا علم لأحد بها، ومن يحاول المناقشة أو الإصلاح تصب عليه لعنت الكنيسة ويحرم من رحمتها، ظل الوضع كذلك إلى أن ظهرت أصوات تنادي بالإصلاح، ولم ترض بهذا الوضع الشائين للكنيسة فقامت حركات إصلاحية كثيرة وصلت ذروتها على يد (مارتن لوثر) في ألمانيا، ثم ظهر صوت آخر في سويسرا وهو (زونجلي) ثم ظهر بعدهما (كلفن) في فرنسا، وسلك هؤلاء طريق الإصلاح، وسوف يأتي التعريف بهم في حينه.

والحديث عن الحركات الإصلاحية في أي عصر من العصور لا سيما حركات الإصلاح الدينية لمن الأحاديث التي تنشط الفكر، وتلفت النظر، لأن الأمور الدينية يهتم بها الأفراد على اختلافهم وتنوعهم، ومن الحركات الإصلاحية التي كان لها أثرها الواضح في العالم المسيحي (حركة الإصلاح البروتستانتي) التي كان لها من الصدى والأهمية ما لها، فهي من الحركات التي كتب لها قدر كبير من النجاح على الرغم من قيامها وسط مصاعب كثيرة، ولكن هبّت لها أسباب وعوامل مهدت لها الطريق وذلت لها السبل، فأثرت في نجاحها

الميلادي) ووقفت على أهم العوامل والأسباب التي كانت وراء قيامها، كما استخدمت المنهج التحليلي الاستباطي الذي يقوم بتحليل النصوص ومقارنتها والتوصل من خلالها إلى النتائج المتصلة بموضوع البحث من قريب أو بعيد.

والله تعالى أسأل أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم، إنه على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير، وهو نعم المولى ونعم النصير، وصلَّ اللهم وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

دكتور / خالد محمد حدي صميدة
مدرس بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية
 بكلية أصول الدين بالمنوفية

وانتشارها، الأمر الذي نتج عنه ظهور مذهب ديني جديد في المسيحية وهو المذهب (بروتستانتي) الذي جاء مبادئ جديدة مناهضة للكنيسة الكاثوليكية، مما جعل بعض الباحثين في مقارنة الأديان يقولون بأنَّ ثمة تأثيرات إسلامية تأثرت بها حركة الإصلاح البروتستانتي، وذلك لاتفاق بعض مبادئ هذه الحركة مع ما جاء به الإسلام، وأثبتوا ذلك بالسند التاريخي (١)

وسوف أعرض في هذا البحث مدى هذا التأثير وهل وصل إلى مداه؟ أم أنه كان تأثراً ثانوياً غير مباشر؟

وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن يأتي بعد هذا المقدمة في تمهيد وخمسة فصول وخاتمة.

التمهيد: حول مفهوم مصطلح الإصلاح البروتستانتي.

الفصل الأول: عوامل قيام حركة الإصلاح البروتستانتي.

الفصل الثاني: المصلحون المهدون للإصلاح.

الفصل الثالث: زعماء الإصلاح البروتستانتي.

الفصل الرابع: مبادئ حركة الإصلاح البروتستانتي.

الفصل الخامس: مدى تأثير حركة الإصلاح البروتستانتي بالإسلام.

الخاتمة: وفيها ملخص لأهم ما جاء في البحث من نتائج.

هذا: وقد أعتمدت في هذا البحث على المنهج التاريخي التحليلي، حيث قرأت ما كتبه

المورخون عن العصر الذي ظهرت فيه حركة الإصلاح وزعماؤها (القرن السادس عشر

(١) الشيخ / محمد عبد في رسالة التوحيد الجزء الثالث تحت عنوان (الإصلاح الفكري والتربوي والإلهيات)، الشيخ / محمد أبو زهرة في كتابه (محاضرات في النصرانية)، الشيخ / أمين الحولي في كتابه (صلة الإسلام بإصلاح المسيحية).

ذات قيمة وأهمية، ولم يتضمن مصطلح الإصلاح من قريب أو بعيد، نظرياً أو عملياً الانفصال عن الكنيسة الأم القائمة وقتذاك^(١)

أما عن سبب إطلاق لفظة (بروتستان) على أنصار حركة الإصلاح البروتستانتي فيرجع إلى انتشار حركة مارتن لوثر (قائد حركة الإصلاح البروتستانتي) في المقاطعات الألمانية، وتفاقم الموقف في ألمانيا بالنسبة للكاثوليك، فرأى شارل الخامس أن يخطط خطوة لحل المشكلات الدينية التي باتت تهدد البلاد الألمانية بانقسام ديني مذهبي فوجه الدعوة لعقد المجلس الإمبراطوري الثاني في مدينة (سبير) في بافاريا ١٥٢٩ م ولم تعجب قرارات هذا الجمع أنصار الحركة اللوثرية، حيث قرر السماح بإقامة الطقوس الكاثوليكية في المقاطعات اللوثرية، ولكنه لم يمنع هذه المقاطعات الحق المقابل، وهو أن يكون لها الحق في المقاطعات الكاثوليكية بإقامة القداس طبقاً للمذهب اللوثرى، ولذلك قرر أنصار الحركة اللوثرية تحدى الإمبراطور، فاحتجوا على قرار جمع سبير الثاني، وقالوا إننا نحتاج ونعلن أننا لا نستطيع أن تذعن لهذا القرار ونعتبره لاغياً وغير ملزم لنا، ووقع على هذا الاعتراف خمسة أمراء وحكام أربع عشرة مدينة، ومن الاحتجاج اشتق أنصار الحركة اللوثرية الاسم الذي اشتهروا به وهو (البروتستان) أي المحتجون، وهو الاسم الذي التصق بهم إلى الوقت الحاضر^(٢)

١) النصرانية نشأها التاريخية وأصول عقائدها - د / عرفان عبد الحميد فتاح ص ١٣٥: ١٣٦ بتصريف ط الأولى ١٤٢٠ هـ ٢٠٠٠ م دار عمار للنشر.
٢) أوربا في مطلع العصور الحديثة - د / عبد العزيز الشناوي ص ٤٠٦: ٤٠٨.

تمهيد

حول مفهوم مصطلح الإصلاح البروتستانتي

الإصلاح مصدر لفعل أصلح، من الفعل الثلاثي (ص ل ح) وجاء في المعجم الوسيط "صلاح صلاحاً وصلاحاً زال عنه الفساد والشيء كان نافعاً أو مناسباً يقال هذا الشيء يصلح لك" (صلاح) صلاحاً وصلاحاً صلح فهو صليح (أصلح) في عمله أو أمره أتى بما هو صالح نافع، والشيء أزال فساده، وبينهما أو ذات بينهما أو ما بينهما، أزال ما بينهما من عداوة وشقاق، وفي الترتيل العزيز (وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ افْتَلُوا فَاصْبِلُوهُا بَيْنَهُمَا) (١) و (فَأَئْتُو اللَّهَ وَأَصْبِلُوهُا ذَاتَ بَيْنَكُمْ) (٢) والله لفلان في ذريته أو ماله جعلها صالحة وفي الترتيل العزيز (وَأَصْبِلْهُ لَيْ فِي ذَرَرِيَّتِي) (٣) (٤)

وجاء في (لسان العرب): "صلاح: الصَّلاح ضدَّ الفساد صَلَح يَصْلَحُ وَيَصْلُحُ صَلَاحاً وَصَلُوها... والإصلاح نقىض الإفساد... وأصلح الشيء بعد فساده أقامه" (٥) فالإصلاح إذن هو ترقية وتحسين وتطوير إلى ما هو أفضل وتغيير إلى ما هو أحسن عبر التخلص من المثالب والمساوئ والقصور... .

وفي العصور الوسطى (٦) كان مصطلح الإصلاح يعني المحاولات التي جرت لإصلاح الكنيسة وإنقاذهما من التزعزعات الدينية التي غرقت فيها، ومن القضايا اللاهوتية التي لم تعد

١) سورة الحجرات من الآية ٩.

٢) سورة الأنفال من الآية ١.

٣) سورة الأحقاف من الآية ١٥.

٤) المعجم الوسيط - إبراهيم مصطفى وآخرون ج ١ ص ٥٢٠ ط دار الدعوة للنشر.

٥) ابن منظور - لسان العرب ج ٢ ص ٥١٦ ط الأولى دار صادر بيروت.

٦) تبدأ العصور الوسطى من سقوط الإمبراطورية الرومانية في القرن الخامس الميلادي إلى مطلع عصر النهضة في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي "أوربا في العصور الوسطى" - ويفرز ص ٨ ترجمة د / عبد الحميد حدي محمود ط الأولى دار المعارف ١٩٥٨ م.

ومقدسة ينكشف بعض الصفة من الخلق عن طريق الكشف والإلهام الإلهي فهذا المصطلح في المسيحية يعني أفعال مخصوصة لها مظاهر خارجية تمهد هذه الأفعال نعمة إلهية خفية ومستور، وهي سبعة أسرار

١ - سر العمودية:

وهذا السر هو سمة الدخول في الملة المسيحية، وقد حل بدليلاً فيها عن سنة الاحتنان في اليهودية، والتعميد يكون في الماء أي بالغطس في الماء، ويكون عند الولادة أو عند الدخول في المسيحية.

ويعتبر في المسيحية رمزاً إلى الانتقال من حياة لم تكن على وفق ما أراده الخالق من البشر، إلى حياة جديدة متوافقة ومنسجمة مع الإرادة الإلهية، ومن ثم ينال بها الخلاص النهائي.

٢ - العشاء الرباني:

ويعني القيام بأداء الشكر ويسمى كذلك باسم الطقوس الربانية، والقدس، والصلة الجامعية العامة، وليس ثمة خلاف بين الطوائف المسيحية على العمل بهذه الشعيرة عندهم، فقد جاء في الأنجليل الأربع: "الحق أقول لكم: إن كتم لا تأكلون جسد ابن الإنسان ولا تشربون دمه فلن تكون فيكم الحياة ولكن من أكل جسدي وشرب دمي فله الحياة الأبدية، وأنا أقيمه في اليوم الآخر، جسدي هو القوت الحقيقي، ودمي هو الشراب الحقيقي، من أكل جسدي وشرب دمي يثبت هو في، وأثبتت أنا فيه، وكما أنا أحيا بالأب الحي الذي أرسلني فكذلك يحيى بي من يأكل جسدي" (١)

٣ - سر التوبه والاعتراف بالذنوب وغفران الخطايا:

في معتقد النصارى أن السلطة الروحية التي كانت لل المسيح قد انتقلت منه عن طريق

(١) إنجليل متى إصلاح ٢٦ فقرة ٧٠، مرقس إصلاح ١٤ فقرة ٢٢، لوقا إصلاح ٢٢ فقرة ٧٠، يوحنا إصلاح ٦ فقرة ٥٧.

الفصل الأول

عوامل قيام حركة الإصلاح البروتستانتي

اجتمعت عدة عوامل ساعدت على ظهور حركة الإصلاح البروتستانتي في أوروبا في القرن السادس عشر، وهذه العوامل تبين الوضع الذي كانت عليه الكنيسة ورجالها قبيل ظهور حركة الإصلاح، ومن هذه العوامل التي أسهمت بقوة في قيام الإصلاح هي في جملتها كما يلي: أولاً: استبداد الكنيسة.

ثانياً: السلوك المتردي لرجال الكنيسة.

ثالثاً: محاكم التفتيش.

رابعاً: صكوك الغفران.

خامساً: العشاء الرباني.

أولاً: استبداد الكنيسة:

اعتلت الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا مجموعة من مظاهر الانحراف والطغيان والاستبداد الكensi والبابوي في شتى المجالات، الأمر الذي دفع إلى الإصلاح وإلى الثورة على الكنيسة، ومن مظاهر هذا الاستبداد ما يلي:

١ - الاستبداد الديني:

قام البابوات بخداع الناس، وذلك باختراع تعاليم وأسرار لا تخفي، صرفوا بها الناس عن التوجه لله وحده مباشرة، وجعلوا عوضاً عن ذلك بعقائد ومبادئ لا صلة لها بالدين القويم، وقالوا بوجود أسرار خاصة لكل عقبة، وسموها بالأسرار الكنسية السبعة....

والأسرار السبعة في المسيحية مصطلح ينطوي على غموض شديد من حيث وجوه اشتغاله، فهو يشير إلى أعمال مكررة لخدمة الإله أو الآلهة، كرموز على الطاعة والولاء، والقسم عادة ما يوجد في مكان له قدسيته وباللفاظ تنطوي على معانٍ دينية، كما يشير إلى معرفة خاصة

غرامة معينة على طالب الغفران، وأصبح هذا السر له شرعيته في المسيحية بعد مؤتمر (لاتران الرابع ١٩٥٣م) وصار لزاماً أن يقوم به المسيحي مرة في الحياة على أقل تقدير أيام الاحتفال بعيد القيمة عند الكاثوليك، وهذا السر اتخذ وسيلة لجمع الأموال من المسيحيين، وذلك عن طريق بيع صكوك الغفران، وأصبحت صورة تجارية رخيصة^(١) وبذلك غالى الكنيسة فجعلت لنفسها حق غفران ما تقدم وما تأخر من الذنب، وأغرت في المغالاة حتى جعلت صكوك الغفران باباً من أبواب الكسب.

٤ - سر ثبيت العمودية:

وهذا السر يتلو سر العماد في الطفولة، وقد صارا سرين منفصلين، فعندما يبلغ المسيحي والمسيحية الرشد يجري هذا السر عليهم، حيث يضع الأسقف وأحياناً القسّيس الدهن المقدس المسمى (المiron) على جبهة من يجري عليه هذا السر، ليتأهل بذلك أن يكون من الشهداء على المسيحية ويعلن عن إيمانه بشجاعة وثبات، وكان من يجري له ذلك يضع يده على المسيح لينال مجدداً روح القدس وهذا الزيت يمسح المعبد الجديد، فيقوم القسّيس أو الشمس أو غيرها باستدعاء البركة الإلهية^(٢) حسب زعمهم.

٥ - رسامة الكهانة:

يتم بهذا السر رسم من وقع عليهم الاختيار من قبل الآباء الكبار في الكنيسة، ليكونوا بذلك مؤهلين دينياً للتبرير بالإنجيل، والقيام بإجراء الأسرار باسم الكنيسة، ومن خلال انتقال الروح القدس إليهم كما انتقلت إلى التلاميذ من قبل، وهذه الرسامة يقلدها كبار الأساقفة للقسّيس، بوضع الأيدي على رؤوسهم لنيل الروح القدس التي تؤهلهم لسلطة

الوراثة الروحية إلى الحواريين ومنهم إلى القديسين، ويقولون بأن السيد المسيح بعد صلبه قام وصعد إلى السماء ثم ظهر لتلاميذه الأحد عشر ففي إنجيل متى: "فَدَنَا مِنْهُمْ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ: نَلْتُ كُلَّ سُلْطَانٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَادْهَبُوهُ وَتَلَمَّذُوهُ جَمِيعَ الْأَمَمِ، وَعَمِلُوهُمْ بِاسْمِ الْأَبِ وَالْابْنِ وَرُوحِ الْقَدْسِ وَعَلِمُوهُمْ أَنْ يَعْمَلُوا بِكُلِّ مَا أَوْصَيْتُكُمْ بِهِ، وَهَا أَنَا مَعَكُمْ طَوْلَ الْأَيَّامِ إِلَى انْقْضَاءِ الدَّهْرِ"^(٣)

والذين يؤمنون تساندهم هذه الآيات: يطردون الشياطين باسمي، ويتكلمون بلغات جديدة ويمسكون بأيديهم الحيات، وإن شربوا السم لا يصيبهم أذى ويضعون أيديهم على المرضى فيشفوهم^(٤)

فهي إذن سلطة مورثة، ورثها القديسون من المسيح، وأول من ورث هذه السلطة الروحية في زعمهم - (بطرس بن يونان)^(٥) وأن ما يربطه في الأرض يكون مربوطاً في السماء ومن صفات هذه السلطة التوبة وغفران الذنب "سر الاعتراف" كان في بادئ الأمر يتم في العلن، وكان طالب الغفران يقوم بأفعال مخصوصة كي تغفر له الذنب، ومنها أنه يصوم، ويرتدى الخشن من الثياب، ويأخذ نفسه بالتقشف والزهد ودفع الصدقات مخافة الحرمان من الكنيسة، والطرد من جماعة المؤمنين، ثم تحول الأمر بعد ذلك إلى أن المذنب يوح للقسّيس في السر بذنبه، وعلى أثر ذلك يعلن القسّيس التكفير عن الخطيئة ويفرض

(١) إنجيل متى إصلاح ٢٨ فقرة ٢٠: ٢٠.

(٢) إنجيل مرقس إصلاح ١٦ فقرة ١٧: ١٩.

(٣) بطرس بن يونان يعرف ببطرس الرسول أو القديس هو سمعان بن يونان ويلقب بالصخرة وقد نال لقبه هذا من السيد المسيح بحسب رواية الكتاب المقدس، كان بطرس الرسول واحداً من خمسة رسول الذين اختارهم المسيح من بين أتباعه وسموا بالتلاميذ. ففي إنجيل متى: "... وَاتَّمْ مَاذَا تَقُولُونَ مِنْ أَنَا؟ فَاجْأَبَ سَعْمَانَ بَطْرُسَ، أَنْتَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ الْحَمِيِّ .. فَأَطَلَّ عَلَيْهِ يَسُوعُ اسْمَ الصَّخْرَةِ وَقَالَ لَهُ سَتَّكُونَ أَنْتَ الصَّخْرَةُ الَّتِي سَابَنِي عَلَيْهَا كَبِيْسِيٌّ، وَأَبْوَابُ الْجَحِيْمِ لَنْ تَقْوِيَ عَلَيْهَا". إنجيل متى - إصلاح ١٣ فقرة ١٦.

(٤) النصرانية نشأتها التاريخية وأصول عقائدها - د / عرفان عبد الحميد فتاح ص ١١٤: ١٢٠ بتصرف.

(٥) المرجع السابق ص ١٢٦.

٧ - المسح على المريض بدهن الزيت المقدس:

هذه الشعيرة من العادات المستقرة عند المسيحيين، وكانت لأغراض متعددة، فكان الهدف من المسح تارة لطلب الشفاء من الأمراض والبرء منها، وأخرى لطلب حلول القدسية على الممسوح وهكذا، وقد أشارات الأنجليل إلى أن المسيح كان يمسح على المرضى بعصافيره ولعابه طلبا للشفاء " وفي هذا السر يعطي الكاهن النعمة الإلهية لشفاء الأمراض والعجز

الجسدي والنفسي ومغفرة الخطايا وتقوية النفوس في الإيمان والرجاء" (١)

ففي إنجيل متى: لما أرسل الإثنى عشر قائلاً: " اشفوا المرضى، أقيموا الموتى، ... فمضوا

وكرزوا بالتبوية، وأخرجوا الشياطين، ودهنو بالزيت المرضى فشفوهم " (٢)

وليست هذه الأسرار مجرد طقوس وإنما أسرار دينية مقدسة لها قدسيتها عند أتباع الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذك司ية ولا يعترف أتباع الكنيسة البروتستانتية إلا باثنين فقط منها وهما: سر العمودية، والعشاء الرباني وينكرون سواها لأنه لم يرد عليها دليل في الكتاب المقدس.

وقد استدل المسيحيون على هذين السرين بما جاء في إنجيل متى: " وفيما يأكلون أخذ يسوع الخبز وبارك وكسر وأعطى التلاميذ، وقال خذوا كل هذا هو جسدي، وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلاً اشربوا منها كلكم " (٣)

واستلوا على التعميد بما جاء في إنجيل مرقس: " من آمن واعتمد يخلص ومن لم يؤمن يدان" (٤)

هذه الأسرار شكلت ضغطاً روحاً على النفوس، لقد جعل رجال الدين الكنسي هذه

(١) العبادة المسيحية - الارشندريت الياس ص ٨٨: ١٠٢ مؤسسة خليفة للطباعة لبنان ١٩٨١.

(٢) إنجيل متى إصلاح ١٠ فقرة ٨.

(٣) إنجيل متى فقرة ٢٦، ٢٧.

(٤) إنجيل مرقس فقرة ١٦، ١٦.

روحية ملخصة ثابتة لا تنزلول ول يؤدوا دور الشفاء بين العباد وبين الله تعالى، فهذا السر يسند إلى الكهنة منصبهم الجديد ينال الكهنة ويتم تقدس المؤمنين بالأسرار المقدسة والخدم الكنسية، ومن ثم يقوم الكهنة بعد ذلك بقيادة الناس إلى الخلاص - حسب ما يزعمون.

٦ - سر الزواج والحياة الزوجية المقدسة:

فبعد المسيحين الحياة الزوجية سر مقدس، وعقده خالد لا يمكن فسخه بحال، ولا يجوز حله بعد ربطه، وفي الأنجليل إشارات كثيرة إلى ذلك، جاء في إنجيل متى " من طلق امرأة إلا في حالة الزنى يجعلها تزني، ومن تزوج مطلقة فقد زن " (١)

فمن بدء الخليقة جعلهما الله ذكرا وأثني، ولذلك يترك الرجل أبيه وأمه ويتحدد بamarأته فيصير الاثنان جسدا واحدا، فلا يكونان اثنين بل جسد واحد، وما جمعه الله لا يفرقه الإنسان" (٢)

فالزواج عندهم سر مقدس وعقده خالد لا يمكن فسخه بحال، وبذلك يحرمون الطلاق تحريراً قطعياً وأنه لا ينبغي فصم الزواج لأي سبب مهما عظم، وإن كانت بعض المذاهب المسيحية تبيح الطلاق في حالة الزنى.

(١) إنجيل متى إصلاح ٥ فقرة ٣٢: ١٩.

(٢) إنجيل مرقس إصلاح ١٠ فقرة ٩ ولوقا إصلاح ١٦ فقرة ١٨. تشدد الكنيسة في تحريم الطلاق وتنعه بين أتباعها فالمنذهب الكاثوليكي يحرم الطلاق تحريراً باتاً، ولا يبيح فصم الزواج لأي سبب، مهما عظم شأنه، وحتى الخيانة الزوجية نفسها لا تعد في نظره مبرراً للطلاق، وكل ما يبيحه في حالة الخيانة الزوجية، هو التفرقة الجسمية بين شخصي الزوجين، مع اعتبار الزوجية قائمة بينهما من الناحية الشرعية، فلا يجوز لواحد منهما، في أثناء هذه الفرقـة، أن يعقد زواجه على شخص آخر، لأن ذلك يعتبر تعداً للزوجات، والتعدد غير مباح عندهم بحال، والمنذهب الميسحيان الآخرين: الأرثوذكسي، والبروتستانتي يبيحان الطلاق في بعض حالات محدودة، من أهمها الخيانة الزوجية، ولكنهما يحرمان على الرجل والمرأة كليهما أن يتزوجا بعد ذلك، وتعتمد المذاهب المسيحية، التي تبيح الطلاق في حالة الخيانة الزوجية.

الكنيسة، وبما يصلون إلى ما يهون ويشهون، ثم دفعهم هذا إلى اعتماد القرارات والأوامر التي يصدرها البابا^(١) وهو الرئيس الأعلى لكل رجال الدين المسيحي التابعين له والخاضعين لسلطته، ومنح رجال الدين هؤلاء لأنفسهم العصمة عن الخطأ فيما يقررون من أحكام، فكانوا بذلك أرباباً من دون الله، يحللون ويخرّبون لشعب الكنيسة بحسب آرائهم وأهوائهم وما يرون من مصالح لأنفسهم ولخدمة المسيحية المحرفة الأصول، دون أن يكون لأحد مهما كان عالماً بالدين أن يتعرض على قرارات الجامع، أو قرارات البابا وأوامره ونواهيه^(٢)

٢- الاستبداد العقلي والفكري:

لم تكتف الكنيسة بفرض هيمنتها وطغيانها على الصفاء الروحي بل أغلقت جميع المنافذ المؤدية إلى إنارة الطريق أمام السالكين، وعطلت كل فكر يمس فكرها وأسرارها من قريب أو بعيد، فلقد أصر رجال الإكليلوس^(٣) على هذه الأسرار، وزعموا أنها هي الحقيقة واستخدمو سلطتهم لمنع مناقشة هذه الأسرار، واعتبرت من يناقشها أو يشك فيها مهرطاً ملعوناً من الكنيسة، لأنهم يعلمون أنها لا ثبت عند المناقشة بالعقل والمنطق وقد كانت تلك الأسرار كلها منافية للمنطق ومنافية للعقل لكن الكنيسة "جعلت تلك الأسرار من أصول العقيدة، ثم زعمت أن عندها وحدتها مفاتيحها.. ثم قالت للناس: لن

(١) تطلق كلمة (البابا) على أكبر أساقفة الروم، أي زعيم المسيحيين الكاثوليك، وكان البابا يعتذر زعيمًا لجميع العالم المسيحي قبل حركة الإصلاح، ويليه في المنصب الكاردينال (الأسقف الأعظم) والبابا هو الذي يعين الكرادلة "ويسكن الكرادلة عادة في مقر البابوية وهم يساعدون البابا في شؤون الكنيسة والأمور الإدارية، ومن مسؤولياتهم انتخاب البابا الجديد من بينهم" والأسقف يكون زعيمًا لمنطقة معينة، ويرأس عدداً من القسيسين، بينما رئيس الأساقفة يكون زعيمًا لعدد من الأساقفة "قاموس الكتاب المقدس ص ٨٢٤.

(٢) كواشف زيف في المذاهب الفكرية المعاصرة - عبد الرحمن جبنكة ص ٢٥.

(٣) هم أصحاب المناصب العليا في الكنيسة.

الأسرار أموراً مبهمة غامضة وأحاطوها بهالة من التقديس ليتموها على الناس، وجعلوا من أنفسهم وسطاء إما حلّ أسرارها أو ليقرب الخلق بهم إلى الخالق، وأصبح من العسير على الناس معرفة دينهم إلا عن طريق الكهنة ورجال الإكليلوس الذين تفتتوا في احتكار العلم كما ألم لم يتمحوا للناس الفرصة لمناجاة الله تعالى دون واسطة وإلا اعتبرت سلطتهم وأدعياتهم وأعمالهم باطلة، وأي معارض أو مخالف لآراء الكنيسة وعقائدها يعتبر (هرطقياً) أي مبتدعاً ومخالفاً للكنيسة ويلقي الحرمان من الكنيسة والطرد منها" وكانت قرارات الحرمان بمثابة سيف مسلط على رقاب الناس لا يستطيعون الفكاك منه، ومصطلح الحرمان أو الطرد أو اللعن الذي ابتدعه الرهبان والكهنة كان رعاية لصالحهم، وفرصة للشهرة ونيل المناصب والإغراء في الشهوات فأنشأوا محاكم التفتيش، التي قامت بصنوف شتى من ألوان التعذيب الجسدي الذي يصل إلى حد إزهاق الروح إما شنقاً وإما حرقاً^(٤) إلى هذا الحد وصل الطغيان الديني والروحي لدى الكنيسة ورجالها فسلم رجال الكنيسة سلطة دينية عظيمة تكاد تكون سلطة مطلقة، دون أن يكون لديهم دين صحيح ثابت بمصادر صحيحة، ذات نصوص قطعية النسبة إلى رسول الله عيسى عليه السلام، أو نصوص قطعية النسبة إلى رسول الله من بني إسرائيل قبل عيسى عليه السلام ، فدفعهم هذا إلى اعتماد قرارات تصدرها الجامع الكنيسة، في الأحكام الدينية المختلفة، سواءً أكان ذلك في العقائد، أو في العبادات، أو في التشريعات، أسوة بما كان في المجتمع المسكوني الأول (نيقية ٣٢٥) الذي قررت فيه عقيدة الشیلث، وأقرت عقيدة الصليب والفداء، ومع الرغبة بإنقاذ الدين من حالة الضياع والنسيان، التي مسّت أحكامه وشرائعه، المترلة على لسان عيسى وقبيله، وجد رجال الكنيسة هذه السلطة المطلقة تحقق لهم ربوبيّة على شعب

(٤) الأسس العقدية لظاهرة الرهبنة - عمر وفق الداعوق ص ٤٧٨ رسالة دكتوراه بكلية الدعوة وأصول الدين جامعة أم القرى ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨.

الإقناع حتى غالب عليهم (آمن ثم فكر) ^(١) وكذلك عقيدة الصليب والفاء وبنوة المسيح وألوهيته وغيرها.....
وامتد الطغيان الروحي والعقلي ليشمل المجال العلمي أيضاً، فصبت الكنيسة التعليم بصبغة كهنوتية، وأبعدت أي علم لا يخدم مصلحتها ومكاسبها "ويظهر الطغيان العلمي جلياً في عدم إفساح المجال أمام المدارس المستقلة لممارسة دورها التعليمي، إذ لم يسمح لأي فرد أن يفتح مدرسة داخل حدود الأسقفية أو يياشر تدريس الفنون الحرة دون تصريح وإلا تعرض للمحاكمة" ^(٢)

ولم تستطع الكنيسة رغم هذا الطغيان أن تحول دون قيام النهضة العلمية في أوروبا عندما قامت الجامعات فيها بثورة للتخلص من القيود التي كبلتها به الكنيسة، ولا يخفى أن هذه النهضة ما كانت لترى النور لو لا احتكاك أوروبا بالحضارة الإسلامية التي كان لها الفضل في إثراء عملية التعليم، وأعطى العقل الأوروبي الفرصة للانفتاح والوقوف في وجه جبروت رجال الإكليلوس وطغيائهم، لكن الكنيسة تنبهت لذلك فعملت كل ما في وسعها لمنع الإشعاع العلمي أن يصل إلى الناس "لقد كان هذا الطغيان يفرض على العقول ألا تفك في أمور الكون المادي بما تقتضيه الملاحظات والمشاهدات العلمية، وأن تلتزم بالتفسيرات الكنسية لما جاء من إشارات في التوراة عن شكل الأرض ^(٣) وعمر الإنسان، ولو خالفت هذه التفسيرات كل حقائق العلم النظرية والعملية على السواء ! فحين قال العلماء إن

عطيكم المفتاح ! ولكن عليكم أن تؤمنوا بها كما نقدمها لكم دون سؤال ولا نقاش ! وإن فأتم زائفون العقيدة مهرطقون.... وعليكم اللعنة إلى يوم الدين ! إن الكنيسة هنا وضع نفسها في موضع الإله، بل افترضت لنفسها على الناس ما لم يشا الله سبحانه وتعالى أن يفترضه لنفسه على عباده رحمة بالناس ! فالله - وحده - هو الذي يحق له أن يتبعه عباده بأمور ليس من الضروري أن يدركوا حكمتها، لعلم - سبحانه - من يطيعه بالغيب، ولكنه - من رحمته - قد جعل ذلك في أمور العبادة وليس في أمور العقيدة التي جعلها الله سهلة وميسرة ومفتوحة بلا أغذار ولا غموض، ليستوعبها كل قلب ويطمئن إليها كل قلب، أما الكنيسة فجعلت ذلك في أمور العقيدة، وجعل لنفسها حقوقاً أكثر مما افترض الله على العباد" ^(٤)

ومن وجهة النظر الإسلامية فإن الإسلام رفض هذا المنحى الذي اتجه إليه رجال الكهنوت في منع وصول العلم والفكر إلى الناس وشرح مبادئ الدين بسهولة ويسر، ثم إنه لا يوجد في الإسلام فئة محددة كفئة رجال الكهنوت يزعمون أن عندهم تأويل ما يخفى على الناس، ولا أن لهم أسراراً يحتاجونها عن الناس ثم يطالبونهم بالإيمان بها بلا دليل.

إذن فرغم الكنيسة أن العقل عليه أن يسلم تسليماً أعمى بأمور العقيدة ولا ينبغي له أن يسأل أو يناقش، زعم باطل ليس من طبيعة الدين المترتب عن الله، ولكن هذا من طبيعة الوثنية التي تحتوي على الأمور الغامضة والطقوس المعقّدة التي يعجز العقل عن إدراكها، فالبابوات ورجال الإكليلوس هم الذين حرموا على عقول الناس أن تفكّر، وقهروهم بأساليب متعددة ليؤمنوا بأمور لا يستسيغها العقل، فما كان من الناس إلا أن يخضعوا لهم ويؤمنوا بهذه الأمور التي لا يقبلها العقل خوفاً من طغيان الكنيسة، وذلك كعقيدة التثليث هي قضية في غاية التعقيد " وقد ألفت فيها مئات الكتب والبحوث بمدف التبرير أو

(١) المدخل إلى علم مقارنة الأديان - د / بكر زكي عوض ط الأولى ١٤٢٦ - ٢٠٠٥.

(٢) أوروبا العصور الوسطى جـ ٢ ص ٣٤٠ د / سعيد عبد الفتاح عاشور مكتبة الأنجلو ١٩٨٠ م.

(٣) في سفر صموئيل ورد أن الأرض محمولة على أعمدة: " لأن للرب أعمدة الأرض وقد وضعه عليها المسكونة " سفر صموئيل ٨ / ٢ . وفيها أن الأرض كروية ودائرة مسطحة ففي سفر إشعياء " الحالُ عَلَى كُرْةٍ " دائرة الأرض وسُكّانُهَا كَالْجُنُدُ . الذي يَتَّسِّرُ السَّيَّارَاتِ كُسْرَاقٍ، وَيَسْطُطُهَا كَحِيَّةٍ لِلْسَّكَنِ " سفر إشعياء ٢٢:٤٠ .

(٤) مذاهب فكرية معاصرة - محمد قطب ص ٣٣ : ٣٥ بتصريف.

رجالها دون سند من الكتاب المقدس ولكنهم ادعوا ذلك حتى لا يتعرض عليها أحد، فما كان من الكنيسة إزاء هذه النهضة العلمية إلا تكفيرها للعلماء وتحريم نظرياتهم، ومصادرتهم كتبهم، واستحلال دمائهم، وأنشأت محاكم التفتيش التي أحصت على الناس أنفاسهم، وارتكتب من الجرائم ما يندى له جبين الإنسانية.

وكان الكنيسة بموقفها هذا تقول للناس: إن أردتم الدين فاتركوا العلم.. ومن أراد العلم فقد خرج على الدين فكانت النتيجة أن ترك الناس ذلك الدين الذي يحجبهم عن العلم ويحير عليهم، هكذا كانت العقلية الكنسية تفرض طغيانها على العلماء وتمنع وصول المعرف الصحيحة إلى العقول المستنيرة.

وكان الرجال الذين يتلقون تعليمهم في الكنيسة يكادون يختكرون الحياة العقلية، كانت الكنيسة آخذة بنظرية (بطليموس) التي تحمل الأرض مركز الكون، وتقول: إن الأجرام السماوية جميعها تدور حولها فجاء القسيس (كوبيرنيق) بنظرية تقول بخلاف النظرية القديمة، التي جعلتها الكنيسة ضمن معارفها الدينية، وشرح نظريته في كتابه وطبع كتابه هذا، فثارت ثورة الكنيسة ضده، وقبل أن يساقه إلى محكمة التفتيش أدركته ميتته، فحرمت الكنيسة هذا الكتاب، ومنعت تداوله، وقالت: إن ما فيه هو وساوس شيطانية مغایرة لروح الإنجيل ، ثم ظهر (جيورданو برنو) فنادي بنظرية (كوبيرنيق) فقبضت عليه محكمة التفتيش، وزجت به في السجن ست سنوات، فلما أصر على رأيه أحرقته وبعد عدة سنوات ظهر (جاليليو) الذي توصل إلى صنع المنظار الفلكي، فأيد مشاهداته نظرية (كوبيرنيق) وقال بدوران الأرض، فسيق إلى محكمة التفتيش، وحكم عليه سبعة كرادلة بالسجن، وفرضوا عليه تلاوة مزامير الندم السبعة مرة كل أسبوع طوال ثلاث سنوات، ولما خاف(جاليليو) من المصير الذي انتهى إليه (برنو) أعلن توبته، ورجوعه عن رأيه، وركع أمام رئيس المحكمة قائلًا أنا جاليليو وقد بلغت السبعين من عمرى سجين راكع أمام فخامتك، والكتاب المقدس أمامي أمسه يدي، أرفض وألعن وأحتقر القول الإلحادي

الأرض كروية وإنما ليست مركز الكون ! ويعرف التاريخ الأوروبي من أبطالها ثلاثة أسماء شهيرة غير الأسماء الأخرى التي لم تلمع على صفحات التاريخ، وهؤلاء هم (كوبيرنيكوس) و(جردانوبونو) و(جاليليو) الأول: عالم فلكي بولندي عاش ما بين ١٤٧٣ و ١٥٤٣، والثاني: فيلسوف إيطالي عاش ما بين ١٥٤٨ و ١٦٠٠، والثالث: عالم فلكي إيطالي عاش ما بين ١٥٦٤ و ١٦٤٢، وقد قامت قيمة الكنيسة عليهم وعلى غيرهم فأحرقت من أحرقت، وعدبت من عذبت، وهددت من هددت بالتعذيب والحرق في النار إن لم يكفووا عن هذه (الهرطقة) ^(١) التي تقول إن الأرض كروية وإنما ليست مركز الكون ! مجحة أن التوراة قالت إن الأرض مستوية (أي مسطحة) وإنما هي مركز الكون، والإنسان مركز الوجود " ^(٢)

ومن أمثلة هذا الاستبداد العلمي: أن الكنيسة تعدد حدودها في هذا المجال العلمي، فالله رجالها في التاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية، ووضعوا نظريات وادعوا لها العلمية وصبغوها بصبغة دينية، وعدوها من تعاليم الدين المسيحي وأصوله التي يجب الاعتقاد فيها، ونبذ كل ما يعارضها، وكلما وصل العلماء إلى نظرية جديدة، وجدوا الكنيسة تعارضها كذلك حتى بدأت النهضة العلمية الأوروبية، وأعلن العلماء اكتشافهم العلمية التي أثبتتها التجارب الواقعية، فقد أعلن جاليليو نظرية دوران الأرض حول الشمس، في مواجهة نظرية الكنيسة في ثبات الأرض ودوران الشمس، وهي نظرية تبنتها الكنيسة وتوصل إليها

١) الهرطقة: الكلمة يونانية الأصل معناها (الرأي المستقل) أو (الاجتهاد الفردي) وقد استخدمتها الكنيسة بمعنى المذهب الخارج على المسيحية وعلى ما تقرر في الماخام المسيحية وعلى ما يقوله الآباء والقساوسة " رؤية في سقوط الإمبراطورية الرومانية - د / محمود محمد الحويري هامش ص ٧٥ دار المعارف سنة ١٩٨١ م .

٢) مذاهب فكرية معاصرة محمد قطب ص ٣٩، موقف الإسلام والكنيسة من العلم ص ١٢١ عبد الله الشوخي ط الأولى مكتبة النار الزرقاءالأردن ١٤٠٢ هـ.

وفي القرون الوسطى مارست الكنيسة ذلك السلطان بالفعل على الحكام والحكومين، مع وجود فترات من الصراع المتبادل، حيث يتمدد بعض الملوك والأمراء على سلطة البابا، ويشتد آخرون في حربهم للباباوات حتى إنهم ليعزلون البابا أو ينفونه أو يسجّونه! ولكن السلطة الغالبة كانت للكنيسة، تستمدّها من سلطتها الروحي الطاغي على قلوب الناس، ومن جيوشها الكثيفة ومن أموالها التي تعادل ما يملّكه الملوك وأمراء الإقطاع، ولكن سلطان الكنيسة ظل يتداوى في نهاية القرون الوسطى حتى قام الملوك يعلنون أنهم هم الحكام في الأرض بمقتضى (الحق الإلهي المقدس) وأنه ليس للباباوات عليهم سلطان إلا السلطان الروحي وحده.

ومن هنا جاءت فكرة الفصل بين السياسة والدين، نتيجة الصراع بين الباباوات والحكام، يقول صاحب كتاب أضواء على الإصلاح الإنجيلي: "كانت سلطة الكنيسة ترداد تدرّيجياً وكذا ثروتها ومتلكاتها فما أن جاء القرن الحادي عشر حتى كانت الكنيسة قد وصلت إلى قمة السلطة الدينية والدنيوية فقد كان الأساقفة أصحاب سلطة دينية ومدنية على المقاطعات التي تتبع لهم، وبعد أن كان الملوك والأباطرة يعينون الأساقفة انتزع هذا الحق من الملوك بل استطاع بابا روما أن يفرض سلطاته على الامبراطور نفسه" (١)

٤- الصراع بين الحكام والبابوية:
كانت الكنيسة تعاني من ثلاثة أمور هي بمثابة أمراض خطيرة أولها: السيمونية، وثانيها: زواج رجال الكنيسة، وثالثها: التقليد العلماني.

أما السيمونية: فالقصد بها شراء المناصب الدينية بالمال، وهو داء انتشر انتشاراً واسعاً بين رجال الكنيسة، حتى توصل كثير من غير الصالحين إلى المناصب الدينية الكبيرة عن طريق المال، مما أضعف الكنيسة وشوّه سمعتها، وقد حاول بعض الباباوات محاربة السيمونية

المخطى بدوران الأرض، وتعهد للمحكمة بأن يبلغها عن كل ملحد يوسموس له الشيطان تأييد هذا الزعم المضلّ" (٢)

هذه الأمثلة وغيرها كثيرة يجدها الباحث في معظم الكتب التي تحدث عن الصراع بين الدين المسيحي والعلم، أو اضطهاد الكنيسة لعلماء النهضة الحديثة.

٣- الاستبداد السياسي:

جعل رجال الكنيسة لأنفسهم سلطة سياسة الأمة التي تدين بدينه، وفرضوا على الملوك والأمراء الخضوع المذل، وجعلوا معيار صلاحهم منوطاً بمقدار ما يقدمونه للكنيسة من مراسم الطاعة وواجبات الخدمة، لا بمقدار ما يحفظون من حدود الله، فتدخل القساوسة والباباوات في شئون الحكم وتسبب ذلك في إثارة التزاع بين الباباوات والحكام، وأنكر رجال الإمبراطورية السمو البابوي المطلق وقالوا: إن للإمبراطور سلطاناً مطلقاً مورثاً ولا ينسخ وليس من حق الكنيسة أن تتدخل في هذا الأمر مما أشعل الصراع بين الكنيسة والإمبراطورية قرولاً طويلاً، يروى التاريخ الكثير عن قصة التزاع بين الكنيسة وبين الأباطرة والملوك فقد أصدر البابا (نقولا الأول ٨٥٨-٨٦٧ م) بياناً يوضح فيه منطقه الذي بناه على قضيتين يقبلهما وقتله جميع المسيحيين وهما: أن ابن الإله أنشأ الكنيسة وأن جعل الرسول بطرس أول رئيس لها، وإن أساقفة روما ورثوا سلطات بطرس في تسلسل مستمر متصل، ولذلك فإن البابا مثل الله على ظهر الأرض يجب أن تكون له السيادة العليا والسلطان الأعظم على جميع المسيحيين - حكامًا كانوا أو حكومين - في شئون الدنيا والأخلاق إن لم تكن في جميع الشئون، ونشر نقولا بفضحاته هذه الحجة السهلة، ولم يجرؤ أحد في البلاد المسيحية على معارضتها" (٣)

(١) أضواء على الإصلاح الإنجيلي - فايز فارس ص ١٠ ط القاهرة الحديثة.

(٢) كواشف زيف في المذاهب الفكرية المعاصرة - عبد الرحمن جبنكة ص ٣٥: ٣٥ بتصريف قصة الحضارة - ول دبورات ج ٤ ص ٣٥٢

شهرة: (إن قوة الملوك مستمدّة من كبراء البشر وقوّة رجال الدين مستمدّة من رحمة الله إن البابا سيد الأباطرة لأنّه يستمدّ قداسته من القديس بطرس)

وأصبح البابوات يجعلون لأنفسهم سلطاناً روحياً عالياً وسموا لهذا المنصب، فأصدر الباب جريجوري بمجموعة مبادئ تسمى بالإرادة البابوية، أو الأوامر البابوية، وأهم موادها ما يلي:

- ١ - البابا وحده هو الذي يتمتع بسلطة عالمية.
- ٢ - البابا وحده يمتلك سلطة تعيين الأساقفة أو عزفهم.
- ٣ - جميع الأمراء العلمانيين يجب أن يقبلوا قدم البابا وحده.
- ٤ - للبابا الحق في عزل الأباطرة.
- ٥ - لا يجوز عقد أي مجمع ديني عام إلا بأمر البابا.
- ٦ - ليس لأي فرد أن يلغى قرارات بابوية، في حين أنه من حق البابا أن يلغى قرارات بقية الناس.
- ٧ - لا يسأل البابا عما يفعل ولا يحاكم على تصرفاته. ^(١)

وهكذا حق (جريجوري السابع) سلطة عليا للبابا في حكم المجتمع المسيحي، وإن للبابا الحق في عزل الأباطرة والملوك، فإن امتنع حاكم عن تفيد تعاليم الكنيسة، فإنه يحارب بالأسلحة المادية والمعنوية، ثم سلب الحكم الحق في تعيين أي منصب ديني فقرر ما يلي: إن أي فرد من الآن فصاعدا يتقلّد مهام وظيفة دينية من أحد الحكام العلمانيين، يعتبر مطروضاً من هذه الوظيفة، ومحروماً من الكنيسة ومن رعايا القديس بطرس، وإذا حرر إمبراطور أو ملك على تقليد أحد رجال الدين مهام وظيفة دينية فإنه يحرم من الكنيسة

بتشجيع من الإمبراطور فتم عزل كثير من رجال الدين الذين اشروا مناصبهم بمال، كما أصدرت الجامع قرارات ضد السيمونية والاتجاه في المناصب الدينية.

أما عن زواج رجال الكنيسة: فالمعروف أن معظم الأساقفة ظلوا بدون زواج وكانت الكنيسة ترى ضرورة إلزام رجال الإكليرicos بحياة العزوبية، لأنها رأت أن هذه الحياة من شأنها أن تطهر النفس، وأصدرت الجامع المسيحية قراراً يحرم على الناس التعامل مع القساوسة المتزوجين.

أما مسألة التقليد العلماني: فيعني أن يقوم الحكام من الأباطرة والملوك والأمراء بتعيين رجال الدين في مناصبهم الدينية "والمعروف أن القانون الكنسي نص منذ القدم على أن يكون تعيين القساوسة بواسطة أساقفتهم، وأن يقوم القساوسة وغيرهم من رعايا الأساقفة بانتخاب الأسقف وأخيراً يعتمد كبير كبار الأساقفة - وهو البابا - هذا الاختيار، ولكن هذه الأوضاع تغيرت على مر الأيام، فأصبح أصحاب الأراضي من الإقطاعيين يعينون القساوسة كما تولى ذلك الأباطرة والملوك" ^(١)

وكان يكفي أن يقول الإمبراطور للأسقف تسلم أسقفية كذا ويسلمه خاتم تلك الأسقفية وهذا جعل رجال الدين تبع للحكام والحكام يعنون هذه الوظائف الدينية لمن شاءوا، وسيطروا بذلك على رجال الدين الكنسي وتحكموا في تعيينهم وأصبحوا أداة في أيديهم وتحطّي الأمر أن تدخل الملك والأمراء في اختيار البابوات أنفسهم فأخذ أمراء روما يسيطرُون على البابوية واختاروا لهذا المنصب من يحقق أغراضهم ثم بدأ البابوات يتحررون من نفوذ الحكم شيئاً فشيئاً، حينما أصبح اختيار البابا انتخاباً من هيئة مختارة من صفة رجال الكنيسة، ومن هنا بدأ نفوذ البابوية، فاصطدم البابوات بالحكام ونظر البابوات إلى أنفسهم على أنهم مستمدون لقوتهم من رحمة الله "فهذا جرجوري السابع قال في عبارة

(١) تاريخ أوروبا في العصور الوسطى - سعيد عبد الفتاح عاشر ص ٣٠٤، ٣٠٥ باختصار.

(١) المرجع السابق ص ٣٠١، ٢٩٨ بتصريف.

ونادي البابوات بأنهم خلفاء المسيح على الأرض، وأن بأيديهم مفاتيح الجنة والنار، وما يخلونه على الأرض يكون محلولاً في السماء، وما يربطونه على الأرض يكون مربوطاً في السماء، واستدلوا على ذلك بما في إنجليل متى من قول المسيح للحواريين "الحق أقول لكم كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطاً في السماء، وكل ما تخلونه على الأرض يكون محلولاً في السماء" ^(١)

نهذه السلطة السياسية التي حصلت عليها البابوية منحتها حق الغفران لمن تشاء وكذا حق الحرمان، هذا السلطة جاءت عن طريق الجامع المسيحية، وأيضاً عن طريق الصراعات التي كانت بين الإمبراطورية والبابوية، والتي انتهت بانتصار البابوية واستقلالها استقلالاً تاماً، ولم تعد تابعة لأي من الملوك والأمراء، إذ كان تعين البابا عن طريق الجامع لا عن طريق الأباطرة والملوك، وأصبح الملوك بحكم أنهم مسيحيون تابعون للبابا الذي له السلطة على كل المسيحيين حكام ومحكمين" وزعم المسيحيون أن المسيح أقام بطرس الرسول خليفة له ليرأس الحواريين ويدير شؤون المسيحيين، وقد أنشأ بطرس كنيسة روما، وبذلك فالبابا خليفة لبطرس في رئاسة الكنيسة، وبالتالي هو خليفة المسيح" ^(٢)

٥ - الاستبداد الاقتصادي:
كانت البابوية الكنسية تتلزم بالرهبة التي من سماتها التقشف والزهد وتولية الظهر للدنيا، ثم إن الكهنة كانوا يعتمدون على الهبات والصدقات التي تجود بها أيدي الناس، وهذا يفتح باباً لاغتنام الفرصة لاستغلال الناس، واتخاذ هذا المسلك وسيلة للتجارة والتكتسب الميسور وتكون ثروات ضخمة لا سيما مع غياب العقيدة الصحيحة، وهذا ما حدث من رجال الكنيسة، حيث امتهنوا هذه التجارة واستغلوا مناصبهم في جمع المال، وأصبح تحت أيديهم

فوراً ^(٣)
وهذا تحرر رجال الدين الكنسي من الحكم، وأصبح البابا في روما هو المشرف على رجال الدين الكنسي في العالم المسيحي الغربي.

وهذه القرارات أوقعت البابوية في صدام عنيف مع الحكم وخاصة لما تولى (هنري الرابع ١٠٦٥ م) الإمبراطورية فقد تولى في زمانه البابوية الكاردينال (هيلبراند) سنة ١٠٧٣ م تحت اسم البابا (جريجوري السابع) الذي كان معروفاً بالشدة والصرامة، فحدث الخلاف بسبب تعين بعض الأسقفيات فأصر البابا والملك على أن له وحده الحق في تعين من يشغلون هذه المناصب، وتمسك كل واحد برأيه، فأسرع البابا وأرسل إنذاراً إلى هنري الرابع بالعزل وهدده بالويل والثبور إن لم يخضع لرأي البابا، فعقد هنري بمجمع قرار فيه بطلان انتخاب البابا ثم عزله من منصبه، وعندما سمع جريجوري السابع بهذا القرار دعا هو الآخر لعقد مجمع في الفاتيكان قرر توقيع قرار الحرمان على هنري الرابع وعزله من منصبه، فرأى هنري الرابع أنه لابد من التراجع والاستسلام إذا أراد البقاء في منصبه، فرحل سراً إلى البابا في شدة البرد وفي جبال وعرة ووقف على الجليد ثلاثة أيام أمام القلعة التي فيها البابا، حتى سمح له البابا بالمشول بين يديه والانصياع لجميع شروطه، ودخل هنري الرابع على البابا حافي القدمين، وارتدى بين قدمي البابا باكيما وهو يصبح (اغفر لي أيها الأب المقدس) فغرر له البابا بعد أن فرض عليه شروطاً قاسية وزوده بالتصح والإرشاد" ^(٤) هكذا استطاع هنري الرابع أن يكتسب غفران البابا بعد أن دفع ثمناً باهظاً كلفه كل ما يمتلك من كرامة وهيبة فهو حاكم عظيم أذل نفسه للبابوية، من هنا أصبح للبابوية سلطة على الحكم تعزّلهم من مناصبهم متى شاءت، وتحرمهم من الكنيسة في أي وقت تريده،

١) المرجع السابق نفس الصفحة.

٢) تاريخ أوروبا في العصور الوسطى - سعيد عبد الفتاح عاشور ص ٣٠٩.

(١) إنجليل متى ١٦ فقرة ١٨، ١٩.

(٢) المسيحية - د / أحمد شلبي ص ٢٥٤ بتصرف ط العاشرة ١٩٩٨ مكتبة النهضة المصرية.

الأباطرة والبابوات، وهكذا أصبحت الكنيسة جزءاً من النظام الإقطاعي^(١) وكانت مصادر تلك الأموال متعددة: فمنها الأوقاف، ومنها العشور، ومنها الهبات، ومنها الضرائب، ومنها السخرة.

فاما الأوقاف فقد كانت الكنيسة تمتلك أراض زراعية واسعة باعتبارها أوقافاً للكنيسة يدعى أنها تنفق منها على الأديرة، والكنائس، وتجهيز الجيوش للحروب الصليبية، أو الحروب التأديبية التي تقوم بها ضد الملوك والأباطرة الخارجيين على سلطانها^(٢)

كما فرضت الكنيسة على أتباعها أن يدفعوا إليها عشر أموالهم ضريبة سنوية، ولا يملكون

التهرب منها تحت وطأة التهديد بالحرمان وغضب رب، وحلول اللعنة والغضب.

يقول ويizer في كتابه (معالم تاريخ الإنسانية): " كانت الكنيسة تجني الضرائب، ولم يكن لها ممتلكات فسيحة ولا دخل عظيم من الرسوم فحسب، بل فرضت ضريبة العشور على رعاياها، وهي لم تدع إلى هذا الأمر بوصفه عملاً من أعمال الإحسان والبر، بل طالبت به كحق"^(٣)

وفرض البابا يوحنا الثاني والعشرون بالإضافة إلى ذلك ضريبة جديدة سميت (ضريبة السنة الأولى) وهي دخل السنة الأولى لأية وظيفة من الوظائف الدينية أو الإقطاعية يدفع إلى الكنيسة بطريق الإجبار.

أما الهبات فهي هبات في ظاهر الأمر فقط ، ولكنها تؤخذ بطريق الإحراب، والترغيب والإقطاع، وخاصة الهبات التي تمنح للكنيسة في الوصايا التي يكتبها الناس قبل موتهم، فقد فرضت الكنيسة على الناس ألا يكتبوا وصياغهم إلا على يد القسيس، وفي حضور

(١) قصة الحضارة - ول ديورانت جـ ١٦ صـ ٣١ بتصريف.

(٢) تاريخ أوروبا - فشر جـ ٢ صـ ٣٦٢

(٣) معالم تاريخ الإنسانية - ويizer جـ ٣ صـ ٨٩٥ ترجمة عبد العزيز توفيق جاودة طـ ٣ لجنة التاليف

والترجمة مصر ١٩٦٧ م.

الأموال الطائلة التي ازدادت معها أملاك الكنيسة ازيداداً فاحشاً، فهذا المال وإن كان ملكاً للكنيسة إلا أن البابا هو المتصرف فيه كيما يشاء، وكان الأصل في هذه الأموال أن تكون للفقراء والمساكين، لكن النذر اليسير فقط كان يصل إلى هؤلاء، ويدهبباقي إلى القساوسة والرهبان " ولقد دلت دفاتر الحسابات على أن إيرادات الأديرة الضخمة لم يكدر يصرف عشرها على الأغراض الخيرية، وغالباً ما كان الرهبان يضنون على الفقراء فلا يعطونهم المال الذي قرر الواهبون تخصيصه لهم، والذي لم يكن ملكاً للأديرة التي كانت مجرد حراسة عليه... "^(٤)

لم يكن رجال الكنيسة من أهل الزهد والتلشف كما زعموا وكما يتوقع من قوم حولوا الدين إلى روحانية ورهبانية، وأمرروا الناس أن يكتفوا بعيش الكفاف لكي يدخلوا الجنة ويجلسوا عن يمين رب في الآخرة، إنما كانت الكثرة منهم من فتنوا بالدنيا ونسوا الآخرة. وقد تحدث ول ديورانت في كتابه (قصة الحضارة) عن أملاك الكنيسة الضخمة من قصور، وأديرة، ورقائق، وما كان يدر عليها كهبات وعطايا وغير ذلك فيقول: " أصبحت الكنيسة أكبر ملاك الأراضي وأكبر السادة الإقطاعيين في أوروبا، فقد كان دير (فلدا) مثلاً يمتلك خمسة عشر ألف قصر صغير، وكان دير " سانت جول " يملك ألفين من رقين الأرض، وكان (الكونين في تور) ^(٥) سيدياً لعشرين ألفاً من الرقائق، وكان الملك هو الذي يعين رؤساء الأساقفة والأديرة، وكانوا يقسمون يمين الولاء له كغيرهم من الملاك الإقطاعيين، ويلقبون بالدوق والكونت وغيرها من الألقاب الإقطاعية.... وكانت أملاكها الزمنية، أي المادية، وحقوقها والتزاماتها الإقطاعية مما يجلل بالعار كل مسيحي متمسك بدینه، وسخرية تلوها ألسنة الخارجيين على الدين، ومصدراً للجدل والعنف بين

(٤) عالم العصور الوسطى - كلتون صـ ١٧٨، ١٧٩ ترجمة حوزيف نسيم مؤسسة شباب الجامعات ١٩٨٣

(٥) أحد رجال الدين.

كانوا يتركون للكنيسة بعض المال وقاية لهم من نار جهنم، وكان رجالها يشجعون أمثال هذه الوصايا، كما أن أملك الكنيسة كانت أكثر أماناً من كل ما عادها، لبعدها عن سرقات اللصوص والجنود والحكومات، ولهذا فإن بعض الناس كانوا يتزرون عن أراضيهم للكنيسة ليأمنوا عليها من ذلك النهب، ثم يمتلكونها هم منها بوصفهم عملاً للكنيسة، على أن يقولوا ما لهم من حقوق إلى الكنيسة بعد موتهم، ومنهم من كان يوصي ببعض أمواله أو بها كلها للكنيسة، مشترطين أن تذهب بما يلزمهم في حالتي المرض والشيخوخة، فكانت الكنيسة بذلك تضمن لهم أماناً من الفقر في حالة العجز عن الكسب، كما أن اشتراكوا في الحروب الصليبية ضد المسلمين باعوا للهيئات الدينية أرضهم أو رهنتها أو تنازلوا لها عن ثنها، وما تملكه الكنيسة من الأرض لا يمكن أن ينتقل إلى غيرها، فلا يمكن أن يبيعه أو يرث عنه أحد من رجالها إلا بوسائل غاية في التعقيد يجعل هذا في حكم المستحيل، بالإضافة إلى أن معظم أملك الكنيسة كانت في العادة مفادة من الضرائب التي تفرضها الدولة على سائر الأملك، وكانت الكنيسة تفرض الضرائب وتحبى الرسوم، وتعين الأساقفة من بين أعيان البلاد الذين اعتادوا معيشة الترف والتحرر من قيود الأخلاق، وقلما كان الكرادلة يختارون لتدينهم وتقوفهم، بل كانوا يختارون عادة لثروتهم أو لصلتهم السياسية أو لكتاباتهم الإدارية^(١)

"فإذا أضفنا إلى ذلك صكوك الغفران التي كانت البابوية تكثر من بيعها لطالبي التوبة والمغفرة، والرسوم التي كان يتقاضاها البابا عند تقليد رجال الدين مهام مناصبهم الجديدة، أدركنا في النهاية أن البابوية لم تعد وجود مصادر عديدة أمدتها بما احتاجت إليه من أموال تفي بمعظمهما ومطالبها"^(٢)

القسис يكتب الوصية، وبالتالي يهب الموصي شيئاً من ماله للكنيسة حتى لا يكون محفياً للذوق، ولا يعرض نفسه للحرمان والغضب، وبذلك جمعت الكنيسة خلال عصور الظلم من الثروات ما لا هو محدود وبالنسبة للأملك الموقوفة استحوذت الكنيسة على أراض كانت معفوة وحرة من الضرائب وقد بلغ حجم هذه الأملك ما بين ربع إلى ثلث أوروبا الغربية"^(٣)

"أما العمل المجاني (السخرة): أرغمت الكنيسة أتباعها على العمل المجاني في حقوقها ومشروعاتها لا سيما بناء الكنائس والأضرحة مدة محددة هي في الغالب يوم واحد في الأسبوع، ولا ينالون في مقابل ذلك أجراً"^(٤)

لقد عدَّ كثير من الكتاب والمفكرين الأوروبيين هذا الاستبداد الاقتصادي من المآخذ التي تؤخذ على الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا، والتي كان لها أثر كبير في قيام ثورة الإصلاح الديني بقيادة مارتن لوثر في أوائل القرن السادس عشر الميلادي، وهذا الاستبداد المالي من الكنيسة كان من أهم هذه المآخذ، إذ كانت الكنيسة حينئذ تتمتع بالثراء الفاحش، كما كان يتمتع رجال الكنيسة بثروات طائلة تفوق في كثير من الأحيان ثروات الدول والملوك، ففي سنة ١٥٢٢م كانت الكنيسة تمتلك نصف ثروة ألمانيا، ونصف أراضي الدنمارك وثلاثة أرباع ثروة فرنسا، في الوقت الذي كانت فيه فرنسا تعاني من أزمات اقتصادية، يقول باستور في كتابه (تاريخ البابوات): "إن من أسباب سقوط الكنيسة الألمانية ثراءها الفاحش والذي كانت زيادته غير المشروعة سبباً في إثارة حسد أفراد الشعب وبعضاً، كما كان له أسوأ الأثر في رجال الكنيسة أنفسهم"^(٥)

بمذا كله تجمعت الثروات في يد الكنيسة، فمعظم من كانوا يوصون بأموالهم عند وفاتهم

(١) مذاهب فكرية معاصرة - محمد قطب ص ٣٣.

(٢) الإسلام والغزو الفكري - أ.د / فوزي عبد العظيم رسنان ص ١٤٨ طـ الثانية ١٤٢٩ هـ ٢٠٠٩ م.

(٣) تاريخ البابوات - باستور ص ٧ ٢٩٣.

(٤) قصة الحضارة - ول دبورات ج ٢٢ ص ٤٢، ٤٣ باختصار.

(٥) أوروبا العصور الوسطى - د / سعيد عبد الفتاح عاشور ج ١ ص ٥٠٨.

أن يتقل إرثكم إلى الأجيال القادمة، ولذا من الأحسن أن تبيعوه للكنيسة بأسعار رخيصة (والكنيسة تعنى البابا نفسه) فأصبح بفضل هذه الحيلة أغنى الناس في أوروبا وأكبرهم في ملك العبيد" (١)

وكان البابا (ليو العاشر) أبعد الناس عن الروحانة حيث رغب في الدنيا وأفراحها، وإنفس في جميع أشكال اللهو واللعب وبيع صكوك الغفران كان من الحيل التي استغلت بخلب الأموال من الناس، فكانت هناك غرامات وكفارات لمحظى الجحائم والذنوب، فمن يدفع غرامة معينة لذنب معين ينال صك الغفران، واستمرت هذه التجارة طوال عصر (ليو العاشر ١٥١٣) والعصور السابقة، وهذه الظاهرة هي التي حضرت (مارتن لوثر) على الثورة وبدء حركة الإصلاح، فظل رجال الكنيسة يزيدون من ثروتهم وثروة الكنيسة التي في أيديهم أيضاً بهذه الحيل والوسائل الخادعة حتى أصبحت ثلث أراضي ألمانيا وخمس أراضي إنجلترا ملك الكنيسة، وفي سنة ١٢٥٠ كان دخل البابا من الضرائب وما شاهدها أكثر من دخل ملوك أوروبا كلهم، وفي القرن السادس عشر قدر المجلس الأعلى ثروة الكنيسة فوجد أن نصف ثروة ألمانيا تملّكها الكنيسة فرفع (مارتن لوثر) وزعماء الإصلاح الآخرين أصواتهم ضد هذه الظواهر وحاولوا إزالتها، ولكن البابوات لم يسألوا بذلك وظلوا منغمسين في ترفهم" (٢)

فاستغل البابوات السلطة التي وصلوا إليها عن طريق الرشوة، وكان الكرادلة وكبار رجال الكنيسة الذين دفعوا الرشوة لنيل مناصبهم يستغلون هذه المناصب لكسب المنافع المادية بوسائل مشروعة وغير مشروعة، وقد كسبوا أضعاف المبالغ التي دفعوها رشوة فكانوا يتهزون الفرص لجمع الأموال من الناس.

(١) المسيحية النصرانية - ساجد مير ص ٣٤٢ طـ دار السلام للنشر والتوزيع بالرياض.

(٢) المرجع السابق ص ٣٤٣: ٣٣٩ بتصريف.

ومن هذه الأمور صار لرجال الكنيسة سلطاناً قوياً على الشعب المسيحي في كل الحالات... وأخذنوا يجمعون الأموال الطائلة باسم خدمة المسيحية والتبرير لها، وباسم المشروعات التي يريدون إنشاءها، من كنائس وأديرة وغير ذلك، حتى صار جمع المال والاستكثار من الثروة غاية لديهم، فآمنت الكنيسة ملكاً أوسع الأرضي، وأكثر القصور، وأكثر الأرقاء الذين يعملون في زراعة أراضيهم، وانطلق كثيرون من رجال الكنيسة ينافسون كبار الأغنياء، وملوك الأرضي والأرقاء فيما يجمعون من أموال لأنفسهم، حتى كان بعضهم يملك إقطاعات واسعة وآلاف الأرقاء، وفرضت الكنيسة ضرائب على رعاياها، تأخذها منهم بالقوة، مع ما تأخذه منهم من عطايا وهبات ووصايا، وفتحت رسوم صكوك الغفران التي يبيعونها للناس، أبواباً واسعة تبز بها الكنيسة أموالاً طائلة من الناس، لقد تاجر الكنيسة بنفوذها، وفرضت الضرائب على كل الأديرة التي تشرف عليها، وفرض البابوات على كل أسقف في أول اختيارة لمنصبه ضريبة تعادل من الوجهة النظرية جميع إراده في السنة الأولى، وذلك نظير تثبيته في منصبه، وكذلك كانت مبالغ كبيرة تتضرر من يعينون رؤساء أساقفة، وكان يطلب إلى كل بيت من البيوت المسيحية أن يرسل إلى الكنيسة جزءاً من دخله" (١)

وعلى ذلك اشتدت احتجاجات الناس وبعض الملوك، لكن سلطة الكنيسة كانت أقوى من أن تلتقط لذلك، وتعدل من سلوكها.

حيل البابوات الكنيسة للاستيلاء على الأموال:

احتزت البابوات وأعوانهم طرقاً أخرى لنص دماء الناس غير الضرائب، وبيع المناصب بالمال، وصكوك الغفران "فقد جاء البابا جريجوري الأعظم (١٥٩٠) بطريقة روحانية مدحتة بخلب الأموال ولديها، فقد كان يقول للأغنياء بأن نهاية الدنيا قد حانت ولا يمكن

(١) قصة الخضراء - ولـ دبورات جـ ١٦ صـ ٤٩٠، ٤٩١.

خلال تلك الفترة لم يكونوا فوق مستوى الشبهات، بل إنهم كانوا من ذوي السمعة السيئة وارتكبوا أفظع الجرائم وأبشعها " لقد سلم المؤرخون أن البابوية خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر والجزء الأول من القرن السادس عشر وصلت إلى أدنى درك حلقياً وروحياً كانت بابوية دنيوية.... وكانت مركزاً لباطل فاسد عاجز عن تقديم قيادة روحية وإرشادات كنسية وحقاً كان هذا الباطل يغوص إلى أدنى درك في القيم الأخلاقية" (١).

وفي نفس الوقت التي كان عليه رجال الكنيسة من الانحطاط الخلقي والتديني في الرذائل، أعلنت الكنيسة أنها صاحبة الحق في السيادة على العالم دنياً ودينًا وأنه لابد من إصلاح ولكن من وجهة نظر الكنيسة وكما ترى هي " وكانت البابوية ترى أن إصلاح الكنيسة يكون بإقرار العدالة وذلك يعني الطاعة الكاملة للرب ولا يتحقق ذلك إلا عن طريق الانقياد التام للبابا، ويعتبر الخروج عليه ضرباً من الشرك والوثنية، لأنه ليس فقط مجرد خليفة للقديس بطرس أول البابوات للكنيسة المسيحية على الأرض ولكنه خليفة بطرس تلميذ المسيح، وأن البابا هو الأداة التي اختارها الله ليقر العدالة فوق رؤوس الخطاة" (٢) ولعل ذلك الانحطاط نتج من اطمئنان رجال الكنيسة إلى عدم اهتزاز صورتهم أمام الناس لاعتقادهم فيهم العصمة وعدم الخطأ، وأنهم مهما ارتكبوا من آثام لن تؤثر في مكانتهم وقداستهم، فتضمنت المراسيم البابوية في العصور الوسطى سلطة مطلقة للكنيسة، وأنها لم تخطئ طيلة عمرها وأن البابا لا يسأل عما يفعل وهو يسألون، وأنه لا راد لقضاءه، ومن حقه أن يعزل من يشاء من الأساقفة في أي وقت شاء دون رأي مجتمع وعرف ما يسمى بالسمو البابوي، وخطاب جريجوري السابع رجال الإكليلوس التابعين له بقوله: " إلا

يظهر مما سبق: أنه كان من السهل على الكنيسة أن تمارس ذلك الاستبداد المالي بما تملك من نفوذ طاغي على أرواح الناس وعقولهم، فما هي إلا أن تصدر الأوامر للناس فيطيعوا أوامرها وهم صاغرون، وبذلك يتبيّن: أن الكنيسة كان لها دور حاسم في نقل أوربا إلى عصور الظلم، وذلك بما لها من تأثير مدمر في كل مجال من مجالات النشاط الإنساني.

ثانياً: السلوك المتردي لرجال الكنيسة:

كان الغالبية من رجال الكنيسة يعيشون حياة الترف والملذات والشهوات، مع أن المفروض فيهم أن يكونوا في أعلى درجات الإيمان والطهارة، لكن تدهورت المستويات الأخلاقية وتفشت حالات الفساد والانحطاط بين رجال الدين المسيحي في العصور الوسطى، فكان غالبية رجال الدين المسيحي في ذلك الوقت من مدمني الخمر وعيده للعديد من الخطايا كخطيئة الزنا، وكانوا يعيشون في بحبوحة من العيش، ويسعون وراء المناصب بالمال حيث كانت ظاهرة (السيمونية) (١) متفشية في ذلك الزمان، فقد عم الانحطاط، ودب في الحياة الفساد، وأصبحت الكنيسة مريضة موسومة باسمة الانحطاط الخلقي، لا فرق بين قائد ومقود، الجميع زاغوا وفسدوا معاً، وكانت السيomonية هي الطريقة الوحيدة للحصول على المناصب الكنسية، فبعض الذين شغلوا منصب البابوية في

(١) السيomonية: شراء المناصب الدينية بالمال وهي نسبة إلى (سيمون) وهو اسم عبراني معناه: "السامع" وفي الأصل لفظه نفس الاسم (سمعان) وقد وردت قصة سيمون في الإصلاح الثامن من سفر الأعمال من الفقرة التاسعة إلى الفقرة الرابعة والعشرين، وملخصها: أن سيمون كان ساحراً وكان يدهش شعب السامرة بسحره حيث كان الناس يتبعونه، وحين زار بطرس ويوحنا هذه البلاد ورأى ما يقومان به (ورأى سيمون أنه بوضع أيدي الرسل يعطي الروح القدس قدم لهما دراهم قائلاً أعطياني أنا أيضاً هذا السلطان حتى أبي من وضعت عليه يدي يقبل الروح القدس فقال له بطرس لتكن فضشك معك للهلاك لأنك ظنت أنت فتحت موهبة الله بدرأهـم) أعمال الرسل إصلاح ٨ فقرة ١٨: ٢٠ ولذلك أطلقـت السيomonية على كل من ينـاـجـرـ في الوظائف الكـنـسـيـةـ رـاجـعـ قـامـوسـ الكـتابـ المـقـدـسـ صـ ٤٩٧ـ طـ ٦ـ دـارـ الثـقـافـةـ ١٩٩١ـ .

(١) تاريخ الكنيسة - جون لورير جـ ٤ ص ٣٥ طـ الأولى دار نوبار للطباعة القاهرة ١٩٩٠

(٢) الفكر السياسي الأوروبي في العصور الوسطى - د / رافت عبد الحميد صـ ٣١

تحت سلطتهم، فانحصرت المسيحية في الطقوس التي كان يعزى إليها الخلاص ككيفية أشبه بالسحر وفي الصلوات إلى أرواح العذراء والقديسين بغية نوال برకاتهم والخوف من لعنة الكهنة والأرواح الشريرة والاتكال على الأحاجة والتعاويذ لخلاص الناس من العذاب واكتفى الكهنة بقراءة الطقوس والصلوات باللغة اللاتينية التي لم يكن الشعب أو حتى بعض الكهنة يفهمونها^(١)

فكان الإسراف والبذخ والانغماس في الشهوات والملذات هو المسلك الطبيعي لرجال الكنيسة، فابتعدوا بذلك عن تعاليم المسيحية الداعية إلى الزهد والتقوى، وكان التكشف عند بعضهم تكشفاً ظاهرياً، أما في السر فكانوا يعطون أنفسهم كل حظوظها من الاستمتاع بأنواع لذات الحياة الدنيا، ثم لما صار لهم سلطان قوي على الشعب المسيحي يملكون الأموال الكثيرة، ووسائل الاستمتاع الوفيرة، وضعف تأثير التعاليم والتوجيهات المسيحية في نفوسهم، انطلقت فطرتهم على سجيتها، وتفجرت شهوتهم تتطلب إشباعها، فأخذوا ينافسون ويسابقون العصاة وأرباب الفجور من عشاق زينة الحياة الدنيا، وطلاب متعها ولذاتها^(٢) وانطلقت الألسنة تلهج بأفهام رجال الكنيسة بارتکاب كبائر الإثم، ومقارفة المنكرات، والانغماس في الموبقات والفحور بمختلف أنواعه وأشكاله، وانطلقت الألسن بأفهامهم بفساد الأخلاق واستغلال سلطتهم الدينية لإشباع شهوتهم، وتحقيق أهوائهم، وصار الإسراف الشديد والبذخ الزائد من الأمور التي يتنافس فيها رجال الكنيسة فيما بينهم فيبددون الأموال الطائلة التي يجبوها باسم الكنيسة ومشروعها على ترهنهم وشهوتهم ولذاتهم.... فانحطت أخلاق البابوات الخطاياً عظيماً، واستحوذ عليهم الجشع وحب المال، حتى كانوا يبيعون المناصب والوظائف كالسلع، وقد تباع بالزاد العلني، ويؤجرون أرض الجنة بالوثائق والصكوك وتذاكر الغفران، ويدفعون شهادات

فليدرك الجميع أنه إذا كان بعقدركم الربط والخل في السماء، فإنكم على الأرض قادرؤ على أن تعطوا الملك من تشاءون، وتزعونه من تشاءون.... بل إن شتم في كل ما يمتلكه بنو البشر^(٣)

فالبابوات قد أعمامهم الطمع، وكان همهم إشباع شهوتهم والإغراء في كل محرم، وقد لخص ويلز إفلاس رجال الكنيسة قائلاً: " ولم تعد لهم بعد رغبة في رؤية مملكة رب موطدة في قلوب الناس، فقد نسوا ذلك الأمر وأصبحوا يرغبون في رؤية قوة الكنيسة التي هي قوتهم متسولة على شعوب البشر وكانوا في سبيل توطيد تلك القوة على أتم استعداد للمساومة مع أي شيء حتى البعض والخوف والشهوات المستقرة في قلوب البشر، ونظراً لأن كثيراً منهم كانوا يسرون الريبة في سلامه بيان مبادئهم لم يسمحوا بأية مناقشة ولا يحتملون أسئلة ولا يتسامحون في مخالفة لا لأئمهم على ثقة من عقيدتهم بل لأئمهم كانوا غير واثقين منها، وكانوا يريدون من حولهم موافقتهم على رأيهم لأسباب تتصل بالسياسة وكانوا يتصدون للهراطقة في كل مكان"^(٤)

يقول صاحب كتاب (أعضاء على الإصلاح الإنجيلي): " هذه السلطة الرهيبة لم تجعل الكنيسة قوية بل بالعكس أضعفتها، فصار الناس يتناقضون للحصول على الوظائف الكهنوtheية بمختلف درجاتها، ويشترونها بالمال والرشوة دون أن تكون لهم أية رسالة روحية أو ميول دينية، وعاش رجال الدين حياة خلية مستهترة أنانية، كل اهتمامهم محصور في المحافظة على سلطتهم وحقوقهم وامتيازاتهم الاجتماعية والمادية... بل كان منهم من يسعى ليحتل أكثر من وظيفة لينال درجات أكبر، وهكذا فسدت الأخلاق وعمت الرذيلة والسكر والعربدة، وابتدا الناس يختفرون الكهنة ويكرهونهم ومع ذلك كانوا يخافوهم لأئمهم

(١) المرجع السابق ص ٣٣

(٢) معلم تاريخ الإنسانية - ج ٣ - ص ٩٠٢، ٩٠٣ بتصريف.

(٣) أعضاء على الإصلاح الإنجيلي - فايز فارس ص ١٠ .

يصف رومه فيقول: أما بلاط رومه فإن المرء لا يستطيع أن يصفه بما يستحق من القسوة، فهو العار الذي لا ينمحى أبداً الدهر، وهي مضرب المثل في كل ما هو خسيس مخجل في العالم.... إنك أينما وليت وجهك - سواء نحو القساوسة أو الأساقفة أو غيرهم من رجال الدين أو الطوائف الدينية المختلفة، أو الأخبار من الطبقات الدنيا أو العليا، سواء كانوا صغاراً في السن أو كباراً - لم تر إلا شراً ورذيلة، تزكم أنفك رائحة الخطايا الآدمية البشعة.. إنهم كلهم ضيقوا العقل، شرهون، بخلاء... تخليوا عن رعاية الأرواح... اتخذوا بطوفهم إلهاً لهم، يأكلون ويشربون في الولائم الصاحبة، حيث يتعمرون في الأقدار، ويقضون حياتهم في الفسق والفحور، ويطعمون أبنائهم من مال الفقراء، ويفرون من الخدمات الدينية فرارهم من السجون" (١)

وينقل صاحب كتاب (المسيحية النصرانية) عن أحد مؤرخي الكنيسة وهو (مل مان) قوله: "حصل على منصب البابا بالجرائم وأُخلي بالقتل عدة مرات، فقد رفع أسقفان شköى رسمية إلى البلاط الملكي بعد انتخاب البابا (دمايس ٣٦٦) بأفهم رأوا مائة

وسبعاً وثلاثين جثة على أرض الكنيسة خلال المشاورات الانتخابية" (٢) وهذا دليل على ما كان عليه رجال الكنيسة من حال متredi، فلا عجب والحالة هذه أن يتضاعل نفوذ رجال الدين، وتفقد البابوية الكثير من أسباب نفوذها وهيبتها نتيجة لهذه الأمور، بالإضافة إلى تطور العقلية الأوروبية تطولاً دنيوياً فلقد تطور المجتمع الذي كان يرى أن الكنيسة هي الملحق والملاذ وأصبح يعارضها ويوجه النقد إليها خاصة بعد تقدم المعارف والعلوم ابتداءً من القرن الثاني عشر الميلادي، فانفصل بعض المفكرين الأوروبيين عن الكنيسة انفصالاً نهائياً وبعضهم الآخر رأى أنه لابد من إصلاح الكنيسة" ومضت سنون

النهاية، وإجازات حل الحرمات والمحظيات... وقد بذروا المال تبذيراً، حتى اضطر البابا (أنوست الثامن) أن يرهن تاج البابوية، ويدرك عن البابا (ليو العاشر) أنه أنفق ما ترك البابا السابق من ثروة وأموال، وأنفق نصيه ودخله، وأخذ إبراد خليفته المرتقب سلفاً وأنفقه، ويروى أن مجموع دخل مملكة فرنسا لم يكن يكفي البابوات لنفقاتهم وإرضاً شهواهم" (٣)

الوصول إلى المناصب، الكنيسة بالقتل وسفك الدماء:

كان أغلبية الأساقفة والبابوات منغمسين في الفسق والفواحش لا يسعون إلا إلى إشباع الغرائز الجسدية وتحقيق آمال فاجرة، يقول باستور في كتابه (تاريخ البابوات) متحدثاً عن كرادلة القرن الخامس عشر: بأن القلة منهم كانوا جيدين ولكنهم ظلوا ضعفاء لا حول لهم ولا قوة بين الأغبياء الطامحة في الدنيا" (٤) وزاد طمع البابوات في القرون الوسطى في السلطة والأموال، وكان البابوات يتهزون الفرص للحصول على الأموال، "حتى إنهم كانوا لا يتورعون عن بيع المناصب الكنيسة، وقد ارتكبت الجرائم المتعددة، ومنها القتل في سبيل الحصول على منصب البابا، وجأ البعض إلى أقبح صور الخداع للحصول على هذا المنصب واعتمدوا أيديها على الرشوة، إما بالأموال، أو بالوعود بمناصب داخل الكنيسة تعود عليهم بمنافع مادية، حتى ولو لم تتوفر في البابا الشروط الكنيسة ولا تطبق عليه لوائح الكنيسة" (٥)

هكذا تاجر البابوات بأكبر المناصب في العالم المسيحي، وكان هدفهم الأعلى طلب الدنيا والترف والاستمرار في عبادة الدنيا وحب المال ولم تكن تناسبهم هذه الحياة.

"الأمر الذي جعل البعض يصفهم (رجال الكنيسة) بأهم (خدم الشيطان)... وبعضهم

(١) قصة الحضارة - ول دبورانت جـ ٢١ ص ٧٨٠: ٨٠ بتصريف.

(٢) المسيحية النصرانية - ساجد مير ص ٣٥٥

-٨٤٩-

(٣) كواشف زيف في المذاهب الفكرية المعاصرة - عبد الرحمن جنكة ص ٣٧ بتصريف.

(٤) تاريخ البابوات - باستور ص ٣٩٠

(٥) المسيحية النصرانية - ساجد مير ص ٣٤١ باختصار.

التي استخدمت كل أساليب القهر والتعذيب والتي تعتبر من أشنع الوصمات في تاريخ البشرية.

لقد هيمن رجال الكنيسة على مقاليد الأمور وبسطوا نفوذهم على العلم والعلماء، وقاوموا النظر العقلي، وتعصبو تعصباً مقيتاً ضد المخالفين لهم في الرأي أو التأويل وتحاملوا عليهم لدرجة اهتمامهم بالخروج على الدين بل إنهم نصبوا المحاكم لمحاكمتهم وطردهم من الكنيسة والحكم عليهم بالسجن تارة واللعنة تارة أخرى وتمثل ذلك فيما سمي بمحاكم التفتيش، واستأثرروا بهفهم الكتاب المقدس، يقول الإمام أبو زهرة: "لقد احتجزت الكنيسة نفسها الحق في فهم الكتب المقدسة عندهم، واستبدلت بتفسيرها دون سائر الناس، ولا يعقب لما تقول في هذا التفسير أو في أي رأي تبديه، أو أمر تعلنه، وعلى الناس أن يتلقوا قولهما بالقبول وافق العقل أو خالفه، وعلى المسيحي إذا لم يستسغ عقله قوله قالته أو مبدأ ديننا أعلنته أن يروض عقله على قوله، فإن لم يستطع فعله أن يشك في عقله ولا يشك في قول البابا" ^(١)

إلى هذا الحد وصلت الكنيسة مداها في السيطرة على عقول الناس وسيطرت على أجسادهم بإقامتها لمحاكم التفتيش، وقد تولت هذه المحاكم مطاردة المارقين وتعذيبهم إلى حد إحراقهم وهم أحياء "فعدم حاول جاليليو أن يرفع من شأن نظرية المركزية الشمسية في القرن السابع عشر (دوران الأرض حول الشمس) جرت محاكمته من قبل محكمة التفتيش في روما، فلم يكن هناك جهد منظم من قبل أي ديانة للتحكم بالناس أقوى من محاكم التفتيش المسيحية، وقد حاولت هذه المحاكم إرهاب الناس في سبيل الطاعة، ومع طغيان محاكم التفتيش قدم رجال الكنيسة تسويغاً لممارسة الاسترقاق والعبودية..... وقد أصرت الكنيسة على أنها هي الأفق الوحيد والمكان المسموح فيه

(١) محاضرات في النصرانية - محمد أبو زهرة ص ١٥٦ طـ الثالثة دار الفكر العربي.

ومركز الكنيسة يهتز في أعين المسيحيين الذين شعرووا بضرورة إدخال تغييرات جذرية في نظم الكنيسة" ^(٢)

ثالثاً: محاكم التفتيش: ^(٣)

كما سبق أن أوضحت أنه تجاه للكنيسة في العصور الوسطى سلطان واسع النطاق، مددود الرابح روحياً بحكم وظيفتها، وسياسياً بسبب ضعف الملوك والأباطرة، فقد ضعف أباطرة الرومان مما أدى إلى ازدياد سلطة الكنيسة، وارتفع شأن البابا في أوروبا، فسيطرت الكنيسة على التعليم في المدارس، واحتكرت لنفسها تأويل الكتاب المقدس، وأدانت كل من جاهر بحقيقة لم تقرها من قبل، ومن لم يذعن لها ولقرارها ونظرها تحقق به اللعنة، وساعدتها على ذلك أن الملوك والأباطرة سلموا بسياستها في اضطهاد المخالفين، وهبمت الكنيسة على كل ميادين البحث العلمي، وفرضت عليها ما تراه حقاً، وعملت على فرض آرائها بالقوة مستندة في ذلك على سلطتها الدينية.

لقد نصب رجال الدين الكنسي أنفسهم لعرفة الحقيقة في كل أمور الدين والدنيا، واعتبروا أي مصدر آخر غيرهم وغير ما تحت أيديهم من كتب مقدسة - في نظرهم - لا يعتمد، بل وعاقبوا كل من تسول له نفسه الخروج عليهم، ووقفت الكنيسة بالمرصاد لكل فكر مخالف لها، ولكل صاحب رأي مغاير لرأي رجالها الذين أعطتهم وحدهم سلطان التأويل والتفسير، ولم تكتف بذلك بل وقمعت المارقين، وأقامت محاكم التفتيش

(١) أوروبا في مطلع العصور الحديثة - د / عبد العزيز الشناوي ص ٣٦٠ .

(٢) محاكم التفتيش اصطلاح مشتق من كلمة لاتينية معنى (بحث - يقصى - يفتح) وقد أسمتها البابا لوسيوس الثالث (١١٨١ - ١١٨٥ م) ثم إنوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦ م) الذي يرتبط اسمه بقيام محاكم التفتيش بصفة رسمية فهو الذي أرسى قواعدها وأشرف على قيامها وخاصة في مجمع اللايتوري الرابع ١٢١٥ م، واستمرت في قمع المخالف بال الحديد والنار والإرهاب لعدة قرون "محاكم التفتيش نشأتها ونشاطها / إسحاق عبيد طـ الأولى ١٩٧٨ م دار المعارف.

المتهمين بعقوبات غاية في القسوة ولعل أخفها أن يحج إلى روما ولكن على الأقدام وقد يستغرق ذلك أعواماً يمكن أن يهلك خلالها ولابد أن يرتدي الصليب الكبيرة وذلك "يعرف بالعقوبة المذلة فكان يطلب من العاقب أن يرتدي صليب كبيرة زعفرانية اللون في الأمام والخلف مما أحضر المعاقين للسخرية، كما كانت هذه المحاكم تقضي بالسجن المؤبد، وكانت أقسى العقوبات هي الإحرق بالربط إلى عمود، وهذه العقوبة كانت تصدر ضد من عادوا فانتكسوا في المهرطقة أو الذين لا يعترفون بأى جريمة" ^(١)

ومن أحرقوا فيمحاكم التفتيش (جون هس) الذي اتهم بالمهرطقة لأنه ندد ببيع صكوك الغفران (لأن فردوس النعيم) لا يورث بالرثوة والربع الحرام وقال... (إن دل هذا على شيء فإيما يشير إلى إفلاس البابوية مادياً بعد أن أفلست معنوياً) وعندما التقت الجموع حوله قوبلاً من البابا بقرار الحرمان وأحرق بالنار في ١٤١٥ م، ويدرك الشيخ أبو الحسن الندوبي جانباً من هذه الجرائم التي ارتكبها محاكم التفتيش فيقول: "فقد عاقبت هذه المحاكم ثلاثة ألف أحرق اثنان وثلاثون ألفاً أحياء، كان منهم العالم الطبيعي برنو الذي حكمت عليه الكنيسة بالقتل، واقتصرت إلا تراق قطرة من دمه وكان ذلك يعني أن يحرق حيا" ^(٢)

هكذا تصرفت الكنيسة مع الشعب فسلكت سبيل القهر والعنف ففرضت عليهم إتاوة على كل فرد مسيحي، وقصرت أحقيّة تفسير الأنجليل لرجالها فقط، وحُجِرت على عقول العلماء تفسير أي قانون في الكون وصادرت محاكم التفتيش على آراء العلماء، وأعدمت حرقاً بمجموعة من المخالفين لها، كما كان تصرفها نحو الحكم لا يقل فظاظة عن معاملتها للشعب "وأصدرت الكنيسة أمراً بأن الأساقفة وحكام الكنيسة يتحملون

للإنسان أن يعرف الرب من خلاله، وقد أعلن البابا إنوسنت الثالث: (أن أي إنسان سوف يحاول بناء رأي شخصي عن الرب يتعارض مع عقيدة الكنيسة ينبغي حرقه من دون شفقة)" ^(١)

وعندما كان الأوروبيون يتمردون على الكنيسة ما كانوا يلاقون إلا القمع والقهر والتعذيب بشتى الوسائل والأساليب البشعة، وأصبح قضاة محاكم التفتيش على درجة كبيرة من الشراء، حيث كانوا يتلقون الرشاوى والغرامات السنوية من الأثرياء في سبيل النجاة من الأهانة، فقد كانت محاكم التفتيش تستولي على جميع الأموال والأملاك المملوكة للمتهمين بالمهرطقة، ولم تكن هذه المحاكم تعطي المتهم فرصة حتى يبرهن على برائته، ولم تكن هناك حاجة لانتظار الإدانة حتى تتم عملية المصادرة لممتلكاته" وعلى خلاف القانون الروماني الذي كان يُعَقِّي بعضاً من الأموال إلى الورثة الأقارب من المدان، فلم يترك قانون وشرعة محاكم التفتيش شيئاً لهم، وأوضح البابا (إنوسنت الثالث) بأن الرب قد عاقب الأطفال من أجل ذنوب والديهم، وذلك إذا لم يتقدم الأطفال ويصلوا بصورة تلقائية لشجب أبيهم، فكانوا يتربكون مفلسين بلا مال، واقامت محاكم التفتيش حتى الأموات بالمهرطقة، وفي بعض الحالات حتى بعد مضي سبعون عاماً على موتهم حيث أخرجوا من قبورهم وأحرقت عظام المتهم بالمهرطقة، ثم أعقب ذلك مصادرة جميع أملاك الورثة وكان مجرد الشك بالمهرطقة يلغى جميع حقوق الفرد المشكوك فيه" ^(٢)

وبلغت وحشية هذه المحاكم أن قررت عدم التخفيف عن من اتهم بالمهرطقة، فلا يخفف عنه من أجل زوجته ولا أولاده ولا أبيه، ولا يجوز عندهم تخفيض قرار الإدانة بسبب المرض أو التقدم بالعمر، وكان كل قرار إدانة بلا استثناء يتضمن الجلد، وكان يحكم على

(١) المرجع السابق ص ٩٦، ٧٩ بتصرف.

(٢) مَا ذَرَّ الْعَالَمَ بِخَطْطَاتِ الْمُسْلِمِينَ - أَبُو الْحَسْنِ النَّدْوِي ص ١٩٤.

(١) الجانبظلم في التاريخ المسيحي - هلين إيليري ص ١٦ ترجمة د / سهيل زكار.
(٢) المرجع السابق ص ١٩.

بقاء نفس الإنسان في المطهر إذا قام ببعض الالتزامات التي تفرضها عليه في أثناء فترة حياته على الأرض وكانت الكنيسة تمنح هؤلاء الغفرانات تخفف عنهم - كما يعتقدون - عقوبة المطهر وألامه، وفي أواخر العصور الوسطى كانت هذه الغفرانات أو صكوك الغفران تباع لقاء قدر من المال بعد ذلك أعلنت الكنيسة أنه يمكن للأحياء أن يشتروا صكوك الغفران لأعزائهم الراحلين " ^(١) "

فكانَت الكنيسة تلعن الناس أئمَّا خاطئون، ثم تعرّض عليهم كيفية تطهير أرواحهم، بأن يعترفوا بذنوبهم إلى القسيسين " ولم يكن صك الغفران رخصة بارتكاب الإثم، بل كان إعفاءً جزئياً أو كلياً من بعض العقاب الذي يستحقه الإنسان جراءً له على آثامه الدنيوية، أو من هذا العقاب كله، وهذا الإعفاء تتحقق إيهـاـ الكنيسة... وكان الغفران الذي يمنحك عند الاعتراف يمحو الخطية التي لولاه لأدت بكـاسـهاـ إلى الحـجـيمـ.... وقد منحت صكوك الغفران منذ القرن التاسع، وأعطـيـ بعضـهاـ في القرن الحادي عشر للحجاج الذين يزورون الأضرحة المقدسة، وكان أول صك بالغفران الكلـيـ هو الذي عرضه إـريـانـ الثاني في عام ١٠٩٥ على من يشترـكونـ في الحرب الصليبية الأولى. ونشأت من هذه العادات سنة منح صكوك الغفران لمن يتلون أدعـيـةـ معـيـنةـ أوـ يؤـدوـنـ خـدـمـاتـ دـيـنـيـةـ خـاصـةـ، أوـ يـنـشـئـونـ القـنـاطـرـ، أوـ الـطـرـقـ؛ أوـ الـكـنـائـسـ أوـ الـمـسـتـشـفـيـاتـ، أوـ يـقـطـعـونـ الـغـابـاتـ، أوـ يـجـفـفـونـ الـمـسـتـنقـعـاتـ، أوـ يـتـبرـعونـ بـالـمـالـ لـحـرـبـ صـلـيـبيةـ، أوـ هـيـئةـ كـهـنـوتـيـةـ، أوـ لـعـيدـ كـنـسـيـ، أوـ حـرـبـ مـسـيـحـيـةـ " ^(٢) "

فضـكـوكـ الغـفـرانـ كانتـ تـمـنـحـ عـلـىـ الـأـعـمـالـ الـدـيـنـيـةـ، وكـذـلـكـ لـمـ يـقـومـونـ بـالـأـعـمـالـ الـدـيـنـوـيةـ مـكـافـأـةـ لـهـمـ عـلـىـ ذـلـكـ

١) المسيحية في العصور الوسطى - جاد المنفلوطي ص ٩٨، ٩٩ طـ دار التأليف والنشر للكنيسة الأسفية

.١٩٧٨

٢) قصة الحضارة - ول دبورانت جـ ١٦ صـ ٤٢٨، ٤٢٩ بتصـرفـ.

مسئـولـيـةـ الـبـحـثـ عـنـ الـذـينـ يـشـكـ فيـ عـقـائـدـهـمـ، وـالـذـينـ لاـ يـخـلـصـونـ لـلـكـنـيـسـةـ، وـبـالـتـالـيـ يـقـبـضـ عـلـيـهـمـ وـيعـاقـبـونـ، وـبـعـضـ الـبـابـوـاتـ شـجـعـواـ عـامـةـ النـاسـ عـلـىـ الـبـحـثـ عـنـ الـمـلاـحـدـ وـالـوـشـايـةـ بـهـمـ، فـالـذـيـ يـفـعـلـ ذـلـكـ يـعـطـيـ لـهـ ثـلـثـ مـتـلـكـاتـ الـمـلـحـدـ، وـالـثـلـثـ الثـانـيـ يـذـهـبـ لـلـكـنـيـسـةـ، وـالـثـلـثـ الـأـخـيـرـ يـأـخـذـهـ الـحاـكـمـ الـمـلـيـ " ^(١) "

فـحـدـثـ نـتـيـجـةـ لـذـلـكـ اـضـطـهـادـ الـأـبـرـيـاءـ بـتـهـمـةـ الـإـلـحـادـ وـالـوـشـايـةـ بـهـمـ، وـشـاعـتـ هـذـهـ الـظـاهـرـةـ بـيـنـ الـأـوـسـاطـ الـمـسـيـحـيـةـ، لـدـرـجـةـ أـئـمـمـ كـانـواـ يـتـهـمـونـ الـمـوـتـىـ بـعـدـ وـفـاقـمـ بـالـإـلـحـادـ لـمـصـادـرـ مـتـلـكـاـهـمـ.

وـبـذـلـكـ اـنـدـفـعـتـ الـكـنـيـسـةـ إـلـىـ السـلـوكـ الـأـنـانـيـ التـبـحـجـ الذـيـ لـاـ يـحـتـرـمـ قـيـماـ وـلـاـ يـأـبـهـ بـعـرـفـ، فـادـعـتـ فـوـقـ هـذـاـ أـلـمـاـ تـمـلـكـ بـيـعـ الغـفـرانـ فـيـ صـورـةـ صـكـوكـ تـبـاعـ بـالـمـزـادـ تـارـةـ، وـبـالـجـيـرـ تـارـةـ أـخـرىـ.

رابعاً: صـكـوكـ الغـفـرانـ:

إـنـ تـعـالـيمـ الـكـنـيـسـةـ تـقـضـيـ بـأـنـ يـقـومـ كـلـ وـاحـدـ مـنـهـمـ بـالـاعـتـرـافـ بـذـنـوبـهـ أـمـامـ الـكـاهـنـ وـيـقـومـ بـمـرـاسـمـ الـكـفـارـاتـ، وـاعـتـقـدـواـ بـأـنـ الـمـسـيـحـ مـنـحـ الرـسـلـ وـهـمـ الـتـلـامـيـذـ - كـمـاـ يـعـتـقـدـ الـمـسـيـحـيـونـ - قـدـرـةـ غـفـرانـ الـخـطاـيـاـ، وـتـقـوـلـ الـكـنـيـسـةـ عـنـ هـذـهـ الـقـدـرـةـ قـدـ اـخـدـرـتـ بـالـتـوـارـثـ مـنـ الرـسـلـ إـلـىـ الـمـطـارـنـةـ الـأـوـلـيـنـ وـمـنـ بـطـرـسـ إـلـىـ الـبـابـوـاتـ، وـمـنـ ثـمـ وـهـبـهـاـ الـمـطـارـنـةـ إـلـىـ الـقـسـيـسـيـنـ فـيـ الـقـرـنـ الثـامـنـ، ثـمـ قـرـرـ مـجـلسـ لـاتـيرـانـ الـرـابـعـ ١٢١٥ـ أـنـ يـتـكـرـرـ الـاعـتـرـافـ وـالـعـشـاءـ الـرـبـانـيـ كـلـ عـامـ وـجـعـلـهـمـ مـنـ الـوـاجـبـاتـ الـخـطـيرـةـ إـذـ أـهـلـهـاـ إـنـسـانـ حـرـمـ مـنـ جـمـيعـ خـدـمـاتـ الـكـنـيـسـةـ، وـكـانـتـ تـعـالـيمـ الـكـنـيـسـةـ الـكـاثـوليـكـيـةـ تـعـلـنـ أـنـهـ بـالـاعـتـرـافـ وـقـيـامـ الـعـتـرـفـ بـمـاـ يـوـصـيـهـ بـهـ الـكـاهـنـ مـنـ أـعـمـالـ كـفـارـيـةـ وـإـلـانـ الـحـلـ أوـ غـفـرانـ الـخـطاـيـاـ يـحـصـلـ الـعـتـرـفـ عـلـىـ رـفـعـ جـرـمـ الـخـطاـيـاـ عـنـهـ... لـكـنـ يـقـيـ بـعـدـ ذـلـكـ آلـمـ الـمـطـهـرـ... وـعـلـمـتـ الـكـنـيـسـةـ بـأـنـ هـاـ السـلـطـانـ لـتـقـصـيرـ فـتـرـةـ

١) المسيحية النصرانية - ساجـدـ مـيرـ صـ ٣١٠.

(الثاني) في عام ١٠٩٥ على من يشتريون في الحروب الصليبية الأولى، وتوسعت الكنيسة في عمليات توزيع صكوك الغفران، ووُجِدَت البابوية في الصكوك مورداً مالياً غيرها سهل المثال، وأخذ البابوات يرسلون مندوبيهم إلى مختلف الأقاليم في أوروبا الغربية لبيع صكوك الغفران، وأقبل الأفراد على شراء هذه الصكوك كل حسب مقدرتة المالية، بل وشرائها من أجل أموالهم نيابة عنهم وذلك مغفرة لذنوبهم – كما يعتقدون – وكان بيع صكوك الغفران يتم بناء على مرسوم بابوي، وكان هذا يعني عملياً التأكيد على نصيب البابا في الدخل، والرغبة في الحصول على الأموال من بيع صكوك الغفران، قد تجاوزت كل حد معقول وغير معقول، فأصبحت هذه الصكوك تباع بالجملة ومقدماً لغفران جميع الخطايا سواء التي ارتكبها الإنسان في ماضيه أو التي سوف يرتكبه في مستقبل أيامه، مما يعد تحريضاً سافراً على الانغماس في الخطايا والآثام طالما أن مرتکبها سيكون بمنحة من عذاب الآخرة.

"وَزَادَ فِي مَهْزَلَةِ صُكُوكِ الْغَفْرَانِ أَنَّ الْبَابَوَاتَ كَانُوا يَعْهُدُونَ إِلَى بَعْضِ الْمَصَارِفِ الْمَالِيَّةِ فِي أَلمَانِيَا بِيَعْبُدِ صُكُوكِ الْغَفْرَانِ إِلَى عَمَلَاءِ الْبَنْكِ، فَانْتَقَلَتِ الْمَسَأَلَةُ مِنْ عَمَلِيَّةِ دِينِيَّةٍ إِلَى عَمَلِيَّةِ مَصْرُوفَةٍ لِحَمْتَهَا وَسَدَاهَا حَصُولُ الْكَنِيَّةِ عَلَى أَمْوَالٍ ضَخِّمَةٍ تَحْتَ سَتَارِ دِينِيِّ هُوَ صُكُوكُ الْغَفْرَانِ الَّتِي بَدَتْ لِكَثِيرِينَ وَكَافَهَا تَذَاكِرُ تَبِيعِ لَحَامِلِهَا دُخُولَ الْجَنَّةِ دُونَ عَنَاءٍ أَوْ مِشَقَّةٍ"^(١)

وفيما يلي نص صك الغفران الذي كان يباع بيع السلعة: "ربنا يسوع المسيح يرحمك يا فلان، ويحلك باستحقاقات آلامه الكلية، وأننا بالسلطان الرسولي المعطى لي أحلك من جميع القصاصات والأحكام والطائلات الكنيسة التي استوجبتها، وأيضاً من جميع الإفراط والخطايا والذنوب التي ارتكبها، مهما كانت عظيمة وفظيعة، ومن كل علة وإن كانت

وفتحت صكوك الغفران الأبواب للمطامع البشرية، وكان البابوات كانوا يشجعون الناس على ارتكاب الخطايا والذنوب ليقوموا بعد ذلك بالاعتراف وطلب الغفران، ومن ثم يحصل البابوات على الأموال.

وكان الاعتراف يتم بطريقة معينة وفي أوقات محددة وبطقوس معلومة لـ "لديهم" يعتقد النصارى أنه لا يمكن دخول الجنة إلا بعد الإقرار بالذنب للقسّيس، وأن كل من يخفى منه ذنب لا يفعله إقراره به في كل سنة عند صيامهم يمشون إلى الكنائس ويقرّون بجميع ذنوبهم للقسّيس الذي يقوم بكل كنيسة، وفي سائر أوقاتهم ولكن لا يقر أحد بذنب إلا إذا مرض وخاف الموت، فإنه يبعث إلى القسّيس فيصل إليه ويقر له بجميع الذنوب فيغفر لها، ويكون الإقرار مصحوباً بالتأسف والتندامة والعزّم الثابت على ترك الخطيئة وعدم الرجوع إليها، وهم يعتقدون أن كل ذنب غفره القسّيس فإنه مغفور عند الله تعالى"^(٢)

ووُجِدَتِ الْكَنِيَّةُ – كَمَا يَقُولُ جُونُ لُورِيَّرُ – طَرِيقَةً أُخْرَى تَرْضِي دِينَوْنَةَ اللَّهِ عَلَى الشَّخْصِ الْمُعْتَرِفُ وَذَلِكَ بِاِبْتِاعِ (صُكُوكِ الْغَفْرَانِ) مِنْ (خَزِينَةِ الْاسْتِحْقَاقَاتِ) فِي السَّمَاءِ، وَلَقَدْ عَلَلُوا ذَلِكَ بِأَنَّ الدَّمَ الَّذِي سَفَكَهُ الْمَسِيحُ – كَمَا يَعْتَدُونَ – كَانَ كَافِيًّا لِلْخَلاصِ بِكَمِيَّاتٍ أَوْفَرَ مِنْ حَاجَاتِ الْجِنْسِ الْبَشَرِيِّ، وَأَنَّ قَدِيسِينَ كَثِيرِينَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِمَا هُوَ أَكْثَرُ مِنَ الْلَّازِمِ لِخَلاصِ ذُوَّاَهُمْ، هَكُذا بَقِيتْ هَذِهِ الْخَزِينَةُ مِنِ الْاسْتِحْقَاقَاتِ الَّتِي أَمْكَنَ السَّحْبُ مِنْهَا بِوَاسِطَةِ صَكِ الْغَفْرَانِ لِلْخَاطِئِ الْعَادِيِّ، وَفِي وَقْتٍ لَاحِقٍ امْتَدَ مِبْدَأِ صُكُوكِ الْغَفْرَانِ لِيُشَمَّلَ الْمُسِيَّحِينَ الَّذِينَ احْتَجَزُوا فِي الْمَطْهَرِ، وَكَانَ فِي اسْتِطَاعَةِ أَقْرَابِهِمْ أَنْ يَشْتَرُوا صُكُوكَ غَفْرَانٍ لِيَحْصُلُوا عَلَىِ الْإِفْرَاجِ"^(٣)

منحت الكنيسة صكوك الغفران، وكان أول صك بالغفران الكلي هو الذي عرضه (إريان

(١) الخلاص من الخطيئة - محمد عبد الرحمن عوض ص ٤٥ ط - دار البشير القاهرة.

(٢) تاريخ الكنيسة - جون لوريير ج ٤ ص .٣٨

(٣) أوربا في مطلع العصور الحديثة - د / عبد العزيز الشاوي ص ٣٦٩

عندما يقول الكاهن (هذا هو جسدي) يتحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه الحقيقيين " (١)

وقد استدل المسيحيون على ذلك بما جاء في إنجيل متى: " وفيما يأكلون أخذ يسوع الخبر وببارك وكسر وأعطى التلاميذ، وقال خذوا كل هذا هو جسدي، وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلاً اشربوا منها كلكم " (٢)

تمسكت الكنيسة بحرفية هذه العبارة التي نسبوها إلى المسيح، واعتقدت بتحول الخبر والخمر إلى جسد المسيح ودمه تحولاً حقيقياً بقدرة القسيس كما يعتقدون، وإذا كان شرب الخمر يعرض دم المسيح للانسكاب على الأرض فقد نشأت في القرن الثاني عشر عادة الاكتفاء بتناول العشاء الرباني بالخبز وحده، وأكد رجال الدين عندهم أن دم المسيح ملازم لجسده في الخبر، وأن جسمه ملازم لدمه في الخمر " (٣)

وأصلت الجامع المسيحية هذه العقيدة عندهم " فأعلن مجلس لاtieran في عام ١٢١٥ م أن هذه العقيدة من المبادئ الأساسية في الدين المسيحي، وأضاف مجلس ترنـت إلى هذا القول في عام ١٢٦٠ م أن كل جزء من الخبر المقدس - في نظرهم - مهما كسر يحتوي على

جسم عيسى المسيح كله، ودمه وروحه " (٤)

" وهذا أمر غريب في العقل لا يستطيع أن يستسيغه أحد بسهولة ويسهل بل لا يستطيع أن يستسيغه قط، إذ كيف يتحول الخبر لحمًا؟ وكيف يصير لحم خص معين معروف؟ ذلك غريب بل مستحيل التصور والقبول في العقل ولكن الكنيسة فرضت على الناس قبوله

(١) المسيحية في العصور الوسطى - جاد المنفلوطي ص ١٠٦.

(٢) من فقرة ٢٦، ٢٧.

(٣) قصة الحضارة - ول دبورات ج ١٦ ص ٤٣١.

(٤) المرجع السابق ج ٤ ص ٤٣٢.

محفوظة لأبينا الأقدس البابا والكرسي الرسولي، وأخوه جميع أقدار المذنب وكل علامات الملامة التي ربما جلبتها على نفسك في هذه الفرصة، وأرفع القصاصات التي كنت تلزم بمكافدتها في المظهر، وأرتكب حديثاً إلى الشركة في أسرار الكنيسة، وأقررت في شركة القديسين، وأرتكب ثانية إلى الطهارة والبر اللذين كانوا عند معموديتك، حتى إنه في ساعة الموت يغلق أمامك الباب الذي يدخل منه الخطأ إلى محل العذاب والعقاب، ويفتح الباب الذي يؤدي إلى فردوس الفرح وإن لم تمت سنتين مستطيلة وهذه النعمة غير متغيرة حتى تأتي ساعتك الأخيرة باسم الآب والابن والروح القدس " (١)

وقد كانت صكوك الغفران في جملتها تستخدم لأغراض دنيوية فلا تمنح صكوك الغفران مثلاً لمن ينافرون الأباطرة على البابوات، كما كانت تستغل من أجل محاكم التفتيش فكان من يأتي للاعتراف والتوبية يطلب منه أن يعترف عن الملائكة والملهومين، وعند الاعتراف يحدث ما يحدث من فضح الأسرار ومعرفة خفايا الناس.

خامساً: العشاء الرباني:

من الممارسات والاعتقادات الخاطئة التي تتعلق ببعض الطقوس والشعائر المسيحية، والتي كانت عاملاً أساسياً من عوامل قيام حركة الإصلاح البروتستانتي مسألة العشاء الرباني (الاستحالة) والأساس في هذه المسألة عند المسيحيين أنهم يأكلون يوم الفصح خبزاً ويسربون خمراً، ويسمون ذلك العشاء الرباني، ولقد زعمت الكنيسة أن ذلك الخبر يستحيل إلى جسد المسيح، وذلك الخمر يستحيل إلى دم المسيح المسفوك، فمن أكلهما وقد استحالاً هذه الاستحالة فقد أدخل المسيح في جسده بلحمه ودمه " (٢)

وتعتقد الكاثوليكية أن المسيح موجود في هذا بجسده ونفسه ولاهوته معاً، وأنه

(١) قصة الحضارة - ول دبورات ج ٣ ص ٥، محاضرات في النصرانية - أبو زهرة ص ٢٠٦ المسيحية

- د / أمد شلي ص ٢٥٤.

(٢) المرجع السابق ص ١٥٦.

الفصل الثاني

المصلحون المهدون للإصلاح

نقد الكنيسة:

بدأ العقل الأوروبي يفيق من سباته، ويصحو من غفلته، ليقاوم تلك السلطة الكنسية ويحاول فتح الأبواب التي أوصدها وخرق القيد التي فرضتها، وتخطي العرائيل التي وضعتها وتحاوز العقبات التي أحدثتها، وحاول هذا العقل أن يصمد أمام أساليب ال欺ه والوحشية والعنف، فعمل على إحداث تغيير لما هو سائد في العصور الوسطى (عصور الظلام والاستبداد) لكن التغيير لم يتم دفعه واحدة، ولا بصورة مباشرة، وإنما مر بمراحل متعددة، وظهر في صور مختلفة، فمرة تُنقد الكنيسة، ومن خلال هذا النقد تظهر المساوى والعيوب، ويزداد فساد رجال الكنيسة وانحطاط المستوى الأخلاقي لديهم، مما يتربّ عليه عدم الاقتناع بريادة رجال الكنيسة وكوفهم أصحاب المقام الأول في التوجيه والقيادة والفكر...

وأحياناً تكون محاولة التغيير في شكل ثورة على الكنيسة ورجالها، وعلى هذا الدين المزيف وطقوسه وأسراره المعقدة الغامضة التي تستأثر الكنيسة بهمها، ولا يتحقق لأحد حوض ميدان المناقشة فيها، ولما بدأ عصر النهضة كان بمثابة ثورة عنفية هدفها تخليص الحياة من براثن العصور الوسطى المظلمة، فبدأ الكتاب يتمرون على سلطان الكنيسة الطاغي، وبهاجعون رجالها وطقوسها، ولكنها كانت أصواتاً متناثرة، وبذلت الكنيسة جهدها في محاولة إسكات هذه الأصوات، مستخدمة في ذلك نفوذها على قلوب الناس وعقولهم وأرواحهم، وسلطانها المعروف الذي كانت تأمر به فطائع، وينظر إلى كلمتها على أنها الكلمة المقدسة التي لا ترد.. لأنها مرتبطة في نفوس الناس بالدين الذي له أثره على القلوب، كما استخدمتمحاكم التفتيش حين اشتد فرعها وخافت على ما في يدها من السلطان ولكن رويداً رويداً زادت الأصوات عدداً، وزادت حرارة، وزادت استخفافاً

ومنعهم من مناقشته وإلا عرضوا أنفسهم للطرد والحرمان^(١)
ورغم عدم مقولية الاستحالة إلا أن الكنيسة فرضتها وأقرها، وحكمت على كل من يخالفها في هذا بالطرد واللعن والحرمان، وما ينبغي التأكيد عليه هنا أن هذه العقيدة لم يقل بها المسيح ولا أتباعه الحقيقيون، وإنما جاءت بها الكنيسة من العقائد الوثنية وأقرها الجامع المسيحية.

(١) محاضرات في النصرانية - محمد أبو زهرة ص ١٥٦.

العصور الوسطى، وبات المسيحيون في دول غرب أوروبا يتحدثون عن ضرورة إصلاح الكنيسة والقضاء على الانحرافات الخطيرة التي ظهرت بين رجالها، ولقد نشطت هذه الحركات بشكل متزايد في أواخر العصور الوسطى، مما كان له أثره في تغيير الجو العام لقيام حركة الإصلاح، ومن أشهر هذه الحركات والشخصيات ما يلي:

الكاثاريون:

ومن عناها الأطهار وكانوا يعرفون بـ (الأليجيين) اسم المنطقة الفرنسية التي كانوا يعيشون فيها وكان قصدهم تطهير الكنيسة من تنعمها وفسادها وإعادتها إلى بساطتها الأصلية.....^(١)

فهذا اللفظ (الكاثاريون) مشتق من الكلمة يونانية معناها (الطاهر)^(٢) وكانت عقائد الكاثاريين وشعائرهم تعتبر عودة إلى العقائد والأساليب المسيحية الأولى من ناحية، وكانت من ناحية أخرى ذكرى غامضة للأريوسية، ومن ناحية ثالثة نتيجة للآراء المانوية وغيرها من الآراء الشرقية، وكان من بينهم رجال دين يرتدون ثياباً سوداء ومطرانة يسمون (الكميل) يُقسمون وقت ترقیتهم لهذه المناصب أن يتخلوا عن آباءهم وأزواجهم وأبنائهم، وأن يهبو أنفسهم لله والإنجيل... لا يقربوا امرأة قط، ولا يقتلوها حيواناً، ولا يأكلوا اللحم أو البيض أو منتجات الألبان، وألا يطمعوا إلا السمك والخضر، وكان أتباعهم يتعهدون بأن يقسموا فيما بعد الأيمان على هذا، وكان يسمح لهم قبل أن يقسموها أن يأكلوا اللحم، ويتزوجوا ولكنهم كان يطلب إليهم أن يخرجوا من الكنيسة الكاثوليكية، وأن يسيروا نحو الحياة (الكافحة)، وأن يحيوا كل واحد من الكمال بثلاث ركعات علامة على التعظيم، ويقسم الكاثاريون الكون كما يقسمه المانوية إلى الخير: الله،

(١) تاريخ الكنيسة - جون لورير جـ ٤ صـ ٤٢

(٢) قصة الحضارة - ول ديورانت جـ ١٧ صـ ٧

بالجيروت الكنسي، علماء.. ومفكرون.. وفلاسفة.. ومصلحون... وكانت محاولات الإصلاح بطيئة لأنها تواجه طغياناً هائلاً مخيفاً، متمكن في الأرض تمكن طويلاً يبلغ عدة قرون.

"إن أول خطوة في طريق تحرر العقل الأوروبي من سطوة الكنيسة وسيطرتها تمثل في شجاعة بعض المفكرين وجرأتهم في توجيه النقد للبابوية أو لرجال الدين المسيحي بوجه عام أو أن يمسوا قدسيّة أو سلطان الكنيسة بسوء أو على الأقل يظهروا استنكارهم لما تقوم به الكنيسة من أعمال وأنشطة"^(١)

غاذج من الحركات والشخصيات التي نقدت الكنيسة:

هناك حركات عديدة ظهرت في أوروبا لتعارض الكنيسة وتظهر عيوبها ومساوئها وتنتقدّها، ففي الفترة من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر ظهرت أكثر من حركة مناهضة للكنيسة، حيث أعلنت هذه الحركات سخطها على الكنيسة، واحتاجت على ما فرضته من قيود، ووجهت السهام النقدية إليها في محاولة لإصلاحها وإصلاح أحوال رجالها القائمين عليها، وكذلك تنكرت بعض الشخصيات للأوضاع الكنيسية وكان أول ظهور لهذه الشخصيات من بين رجال الكنيسة نفسها، فهم لذلك أدرى بحالها المتردي، فحاولوا إصلاحها ليحافظوا على مكانتهم بين الناس، وحتى لا يجرروا على الإصلاح من غيرهم، إن أوروبا قد نفضت فيها حركات أظهرت سخطها وعدم رضاها عن الكنيسة وما تقوم به من أعمال، إن هذه الحركات كانت أفضل تمهد لظهور حركة الإصلاح، فهي التي جرأت وشجعت القائمين على الإصلاح لإظهار مفاسد وعيوب البابوية والمناداة بإصلاحها، لقد كان نتيجة لهذا النقد أن فقدت الكنيسة مكانتها التي كانت تبأها، واهتز الأساس الروحي والأخلاقي الذي أقامت عليه نفوذها بل جبروها في

(١) أثر الكنيسة على الفكر الأوروبي - د/ أحمد علي عجيبة صـ ١٤ طـ الأولى دار الأفاق العربية ٢٠٠٤

أن عيسى ليس ابنًا لله،
وانتشرت آراء هذه الجماعة نظراً لمستويات أخلاقهم الرفيعة، وشجاعتهم وجرأتهم في نقد الكنيسة ومقاومة فسادها، فانضم لهم أتباع كثيرون، يقول جون لورimer "وبسبب مستوياتهم الأخلاقية الرفيعة وشجاعتهم رجعوا أتباعاً كثيرين" (١)

وقامت الكنيسة هذه الجماعة مقاومة شديدة ورأى في وجودها خطراً على مصالحها وكيفاً، ولذلك لما جلس (إنسنت الثالث) على كرسي البابوية في عام ١١٩٨ رأى في هذه التطورات خطراً محدقاً بالكنيسة والدولة جميعاً، فاعتبرتهم الكنيسة هرطقة صنعوا مشكلة للبابوية، فأصدر البابا قراراً بقمعهم، وقامت حملة صلبية كان نتيجتها إبادة جماعية ومذبحة انتهت بها حركة الكاثاريين (٢)

واتسمت الحرب ضد هذه الجماعة بالقسوة البالغة والوحشية المنقطعة النظر "وبتحريض من البابا والسلطات الدينية تم تجنيد نصف مليون رجل زحفوا على المناطق التي كان يقيم فيها الكاثاريون فسلبوها وأشاعوا الخراب أينما حلوا، ولم يرحموا شيخاً ولا طفلاً ولا امرأة ولم ينج منهم أحد فأعملوا فيهم حرقاً وتقتيلاً بلا رحمة ولا شفقة" (٣)
الولدائيون:

ظهرت حركة الولدائيون في أواخر القرن الثاني عشر نسبة إلى زعيمها (بطرس والدو) الذي كان تاجراً غنياً من مدينة ليون في جنوب فرنسا.

كان هذا الرجل يتحدث مرة مع بعض أصدقائه فإذا بأحدهم يسقط ميتاً عند قدميه فثار تائيراً بالغاً واستفاق ليتجه نحو الروحانيات، وطلب من بعض رجال الدين أن يترجموا له بعض فصول الكتاب المقدس إلى لغة الشعب، وقرأ هذه الفصول بلهجة فباع أملاكه

(١) تاريخ الكنيسة - جون لوريمير جـ ٤ صـ ٤٢

(٢) المرجع السابق نفس الجزء والصفحة.

(٣) المسيحية في العصور الوسطى - جاد المنفلوطى صـ ١٤٣، ١٤٤.

والروح، والسماء، وإلى الشر: الشيطان، والمادة، والعالم المادي. وتقول إن الشيطان لا والله هو الذي خلق العالم المائي. وهي تعد المادة كلها شرًا بما فيها الصليب الذي مات عليه المسيح والقرابان المقدس، وتقول إن المسيح لم يكن يتحدث إلا مجازاً حين قال عن الخنزير: (هذا جسمي)... ويصف أعداء الأليبيجينيين أولئك القوم بأنهم يرفضون العشاء الرباني، والقدس، وتعظيم الصور المقدسة، والتثليث، ولا يؤمنون بأن المسيح ولد من عذراء، وعندهم أن المسيح من الملائكة، ولكنه ليس هو الله، ويقال عنهم إنهم ينكرون الملكية الخاصة، ويأملون أن تقسم الطبيات بين الناس بالتساوي (٤)

أما موقفهم من الكنيسة: فقد أنكرت أن الكنيسة كنيسة المسيح، وقالت إن القديس بطرس لم يأت قط إلى روما، ولم يؤسس البابوية، وإن البابوات خلفاء الأباطرة لاخلفاء الرسل، وإن المسيح لم يجد له مكاناً يضع فيه رأسه، أما البابا فيسكن قصراً منفياً، وإن المسيح لم يكن له ملك ولا مال ولكن كبار رجال الدين المسيحيين من ذوي الشراء العريض... ويقولون إن رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ذوي الأملاك الواسعة، والقساوسة الدينيين، والرهبان هم (الزنادقة) الأقدمون عادوا إلى الحياة من جديد، ولم يكونوا يشكرون في أن الكنيسة الرومانية هي عنوان الفساد، وأن رجال الدين هم زمرة الشيطان، وأن البابا هو المسيح الدجال، وكانوا ينددون بالداعين إلى الحروب الصليبية ويشفونهم بأنهم قتله، وكان الكثيرين منهم يستهزئون بصكوك الغفران والمخلفات المقدسة، وقد كانوا يسخرون من الحج، والاعتراف، والماء المقدس، والصليب، وكانوا يسمون الكنائس (معرشات اللصوص) كما القساوسة الكاثوليك في رأيهم (خونة، كاذبين، منافقين) (٥)
هكذا نقدت هذه الجماعة الكنيسة نقداً قوياً وشكوكاً في مبادئ الكنيسة، وكانوا يرون

(٤) المرجع السابق جـ ١٦ صـ ٥٠٠.

(٥) المرجع السابق جـ ١٧ صـ ١.

الإنجليزية، وقضت بعدم أحقيـة البابا في اختيار رجال الدين الإنجلـيز، وـعد السماح لرجال الدين الإنجلـيز بالرجـوع إلى البابـوية في التـزاعـات التي تـنشـأ بينـهمـ، بل على الكـنيـسة الإنجلـيزـة أن تـعمل مـسـتقـلـةـ، وـامـتـنـعـتـ إنـجـلتـراـ من دـفـعـ الضـرـبةـ السنـوـيـةـ المـفـروـضـةـ عـلـيـهاـ للـبابـويةـ^(١)

ولـقدـ اـقـمـ وـيـكـلـفـ الـبـابـوـيـةـ بـأـنـهـ تـعـمـلـ فـيـ صـالـحـ الفـرـنـسـيـنـ، وـأـنـ الـبـابـاـ أـنـوـسـنـتـ الثـالـثـ مـرـتـشـ إـذـ إـنـهـ سـلـمـ أـمـلاـكـ الـبـابـوـيـةـ فـيـ إنـجـلتـراـ مـلـكـ فـرـنـسـاـ دـوـنـ أـنـذـ رـأـيـ أـصـحـابـ هـذـهـ الأـرـاضـيـ، وـأـنـ هـذـهـ الأـرـاضـيـ الإنـجـليـزـيـةـ مـاـ هيـ إـلاـ منـحةـ مـنـ إنـجـلتـراـ للـبـابـوـيـةـ لـاـ يـجـوزـ التـصـرـفـ فـيـهاـ كـيـفـمـاـ شـاءـ، وـاعـتـيرـ وـيـكـلـفـ زـعـيمـاـ قـومـاـ وـتـأـثـرـ الشـعـبـ الإنـجـليـزـيـ بـكـلامـهـ، إـلاـ أـنـ الـكـنيـسـةـ إـنـجـليـزـيـةـ اـعـتـيرـتـهـ زـعـيمـاـ هـرـطـقـيـاـ يـجـبـ القـضـاءـ عـلـىـ أـنـكـارـاهـ، وـتـمـ القـبـضـ عـلـيـهـ، وـزـجـ بـهـ فـيـ السـجـنـ حـتـىـ يـتمـ النـظـرـ فـيـ أـمـرـهـ لـلـحدـ مـنـ آرـائـهـ الـهـرـطـقـيـةـ، إـلاـ أـنـ جـامـعـةـ أـكـسـفـورـدـ الـتـيـ كـانـ هـاـ أـتـيـاعـ كـثـيـرـونـ لـهـ رـأـتـ أـنـ كـتـابـاتـهـ صـحـيـحةـ وـلـيـسـ هـرـطـقـيـةـ، حـيـثـ ذـقـوـيـ مـرـكـزـ وـيـكـلـفـ، وـهـذـاـ مـاـ دـفـعـهـ إـلـىـ مـهـاجـمـةـ الـكـنيـسـةـ، وـاعـتـيرـ أـنـهـ مـؤـسـسـةـ دـينـيـةـ مـنـ مـسـيـحـيـنـ أـنـقـيـاءـ، وـلـيـسـ فـقـطـ مـقـصـورـةـ عـلـىـ قـسـسـ وـرـجـالـ دـينـ، وـأـنـهـ لـيـسـ مـنـ حـقـ الـبـابـوـيـةـ إـصـدارـ قـرـاراتـ الـحـرـمـانـ، ذـلـكـ أـنـ الـسـلـطـةـ الـرـوـحـيـةـ مـلـكـ لـلـرـبـ وـلـيـسـ لـأـيـ أـحـدـ التـدـخـلـ فـيـهـ، كـمـ أـنـهـ ذـهـبـ إـلـىـ أـنـ طـرـيقـ التـوـيـةـ الصـحـيـحـ أـنـ يـعـرـفـ المـذـنبـ أـمـاـ رـبـ هـذـاـ الذـنـبـ، وـهـوـ كـفـيلـ أـنـ يـغـفـرـ لـهـ إـنـ شـاءـ وـأـنـ يـعـذـبـهـ إـنـ شـاءـ، وـأـنـ بـيـعـ صـكـوكـ الـفـرـانـ مـاـ هيـ إـلاـ بـدـعـةـ اـبـدـعـتـهـاـ أـنـ يـغـفـرـ لـهـ إـنـ شـاءـ وـأـنـ يـعـذـبـهـ إـنـ شـاءـ، وـأـنـ بـيـعـ صـكـوكـ الـفـرـانـ مـاـ هيـ إـلاـ بـدـعـةـ اـبـدـعـتـهـاـ الـكـنـيـسـةـ لـزـيـادـةـ دـخـلـهـاـ، لـاقـتـ آرـائـهـ اـنـتـشـارـاـ كـبـيرـاـ فـيـ إنـجـلتـراـ، إـلاـ أـنـ بـعـدـ وـفـاتـهـ تـعرـضـتـ مـؤـلـفـاتـهـ لـلـحرـقـ فـيـ بـدـاـيـةـ الـقـرـنـ الـخـامـسـ عـشـرـ^(٢)

ندـعـاـ إـلـىـ رـفـضـ فـكـرـةـ الـبـابـوـيـةـ وـأـنـكـرـ الرـتـبـ الـكـهـنـوـتـيـةـ وـمـذـهـبـ الـاسـتـحـالـةـ لـذـلـكـ حـرـمـهـ الـبـابـاـ

١) التاريخ الأوربي الحديث - د/ عبد العزيز سليمان نوار وزميله ص ١١٢ طـ دار الفكر العربي

١٤١٩ـ ١٩٩٩ـ مـ.

٢) المرجع السابق ص ١١٤.

وـأـعـطـيـ ثـنـيـاـ لـلـفـقـراءـ، وـجـالـ بـيـنـ النـاسـ يـكـرـزـ بـالـإـنـجـيلـ مـؤـكـداـ عـلـىـ حـقـ الـمـسـيـحـيـنـ أـنـ يـقـرـأـ إـنـجـيلـ بـالـلـغـةـ الـتـيـ يـفـهـمـهـاـ، ذـلـكـ لـأـنـهـ رـأـعـهـ أـنـ وـجـدـ كـثـيـرـونـ مـنـ يـدـعـونـ أـنـهـ مـسـيـحـيـونـ لـاـ يـسـيـرـونـ بـعـدـ تـعـالـيمـ الـكـتـابـ الـمـقـدـسـ، وـالـعـجـيبـ أـنـ الـسـلـطـةـ الـكـنـيـسـةـ قـاـوـمـهـ وـحـكـمـتـ عـلـيـهـ هـوـ وـأـتـبـاعـهـ بـالـحـرـمـانـ إـلـاـ أـنـهـ ظـلـ مـثـابـاـ عـلـىـ رـسـالـتـهـ بـالـرـغـمـ مـنـ ذـلـكـ حـنـيـ حـكـمـ عـلـيـهـ بـالـمـوـتـ باـعـتـبـارـهـ هـرـطـقـيـاـ مـخـالـفاـ لـنـظـامـ الـكـنـيـسـةـ^(٣)

وـكـانـتـ هـذـهـ حـرـكـةـ تـنـقـدـ ثـرـاءـ الـكـنـيـسـةـ أـيـضاـ، وـإـغـراقـ رـجـالـهاـ فـيـ الـفـسـادـ وـالـأـخـطـاطـ الـأـخـلـاقـيـ، وـعـارـضـواـ العـشـاءـ الـرـبـيـانـ وـصـكـوكـ الـفـرـانـ "ـ وـاصـطـبـغـتـ هـذـهـ حـرـكـةـ تـدـريـجـياـ صـبـغـةـ مـعـادـيـةـ لـرـجـالـ الـدـينـ، وـبـنـذـقـمـ جـيـعـاـ، وـأـنـكـرـتـ صـحـةـ العـشـاءـ الـرـبـيـانـ الـذـيـ يـقـدـمـهـ قـسـ آـثـمـ، وـعـزـتـ إـلـىـ كـلـ مـؤـمـنـ طـاهـرـ الـقـدرـةـ عـلـىـ الـعـفـوـ عـنـ الذـنـبـ. وـعـارـضـ بـعـضـ الـأـعـضـاءـ صـكـوكـ الـفـرـانـ، وـعـقـيـدةـ الـمـطـهـرـ، وـتـحـولـ الـقـربـانـ الـمـقـدـسـ إـلـىـ جـسـمـ الـمـسـيـحـ وـدـمـهـ، وـالـصـلـةـ لـلـقـدـسـينـ^(٤)

فـنـالـ زـعـيمـهـاـ مـاـ نـالـ سـابـقـيهـ مـنـ الـحـرـمـانـ وـالـطـرـدـ وـالـاضـطـهـادـ وـالـتـعـذـيبـ مـنـ الـكـنـيـسـةـ، وـأـحـرـقـتـ الـكـنـيـسـةـ أـلـافـ الـأـشـخـاصـ مـنـ أـتـيـاعـ (ـوـالـدـوـ). جـونـ وـيـكـلـفـ:

أـسـتـاذـ عـلـمـ الـلـاهـوـتـ بـجـامـعـةـ أـكـسـفـورـدـ وـكـانـ مـنـ أـشـهـرـ الـوـعـاظـ فـيـ إنـجـلتـراـ وـلـمـ يـكـنـ لـهـ اـهـتـمـامـاتـ وـاضـحـةـ بـالـسـيـاسـةـ، إـلـاـ أـنـهـ تـأـثـرـ بـأـنـتـقـالـ الـبـابـوـيـةـ إـلـىـ (ـأـفـينـيـونـ) وـخـضـوعـهـاـ لـفـرـنـسـاـ، وـلـقـدـ أـثـارـتـ هـذـهـ الـخـطـوـةـ الـشـعـبـ الـإـنـجـليـزـيـ الـمـعـادـيـ لـلـشـعـبـ الـفـرـنـسـيـ، وـهـذـاـ فـقـدـ هـاجـمـ وـيـكـلـفـ الـكـنـيـسـةـ، وـلـقـدـ تـأـثـرـتـ الـحـكـمـةـ الـإـنـجـليـزـيـةـ بـهـذـهـ حـرـكـةـ وـبـالـآـرـاءـ الـقـومـيـةـ الـإـنـجـليـزـيـةـ، فـقـدـ أـصـدـرـتـ مـرـسـومـينـ فـيـ الـقـرـنـ الـرـابـعـ عـشـرـ قـطـعـتـ بـهـ إـنـجـلتـراـ الـصـلـةـ بـهـ إـنـجـلتـراـ وـالـكـنـيـسـةـ

١) أـصـوـاءـ عـلـىـ الـإـلـاصـالـ الـإـنـجـيلـيـ - فـايـزـ فـارـسـ صـ ١٠ .

٢) قـصـةـ الـحـضـارـةـ - ولـ دـيـورـانـتـ جـ ١٦ـ صـ ٤٩٦ـ .

لما وصل إلى مدينة كونستانس قُبض عليه، وزج به في السجن ثم وجهت له همة الرندة والهرطقة، وطلب منه المجمع أن يبين رأيه في بعض المسائل الهرطيقية في نظرهم، فأعلن أنه يتفق مع ويكلف في بعض المسائل ورفض بعضها، وأنه لن يتخلّى عن أي رأي من آرائه، وظل يكتب ويؤكّد أن المسيحيين غير ملتزمين بطاعة البابا إلا في التعاليم التي تتفق مع ناموس المسيح، على إثر ذلك حوكم جون هس في مجمع كونستانس عام ١٤١٤م وهو المجمع الذي كان معقوداً لإصلاح الكنيسة، وكانت محكمته مهزلة، إذ أن الحكم كان مقرراً بإداناته قبل أن يستدعيه المجمع، ثم سبق إلى النار وربط على عمود في وسط جزيرة وأحرقت ملابسه وكبّه على مرأى منه ثم اشتعلت فيه النيران، وهذا أدانه المجمع، وتم إعدامه حرقاً^(١)

يظهر مما سبق أن رجال الكنيسة الكاثوليكية حاولوا أن يزيلوا هذه المساوئ التي ارتبطت بالكنيسة، ولكنهم بدلاً من أن يصلحوا المفاسد الدينية اهتموا بتحسين أوضاعهم المادية، فتشلت الكنيسة في إصلاح نفسها فقدت سلطتها الروحية على أوربا، وأصبحت تحت سلطة البابوات الضعاف الذين كانوا مصدراً للقلق، ومنذ ذلك الحين بدأت البابوية تتجه طريقها نحو الأهياء، حيث بدأت البابوية في اتخاذ المظاهر العلمانية، وبدأ الانحلال الخلقي الذي عم نتيجة تحطيم القيود وأهياء المبادئ، وأهمك البابوات - كما سبق أن أوضحت في جمع الثروات، وثارات التراث بين البابوات وبين الإمارات المحاورة رغبة من البابا في توسيع الولايات البابوية التي يحكمها وفرض هيمنته على الآخرين، ونظر الرعايا إلى البابوات على أنهم حكام علمانيين لا آباء روحيين.

يوحنا روكيين:

لقد تولد شعور ملح بضرورة إصلاح الكنيسة منذ منتصف القرن الخامس عشر واستمر

وأداته الكنيسة، لكنه ظل باقي حياته يترجم الكتاب المقدس إلى اللغة الإنجليزية التي يفهمها الشعب الإنجليزي وظل يكتب ويحظى حتى مات في عام ١٣٨٤م جون هس:

ولد سنة ١٣٧٠ وحصل على إجازة اللاهوت سنة ١٣٩٣م ثم ماجستير الآداب، وقد امتاز تعاليمه بأنها مزيج بين اللاهوت والفلسفة، حيث إنه تأثر بفلسفة أرسطو وظهر ذلك في ثقافته المزوجة بين اللاهوت والفلسفة وقد كان هس من أكرم المthinkers لصلاح المفاسد التي ظهرت في الكنيسة عن طريق الوعظ والإرشاد ولهذا كان له أتباع في كل الطبقات وقد تأثر بتعاليم جون ويكلف إلى حد بعيد حتى قيل إن (هس) من تلاميذ ويكلف.

انتشرت آراء (جون هس) في بوهيميا إلا أنه كان يعتبر نفسه مصلحاً وليس لاهوتيا، لذا رفض بعض مبادئ ويكلف، وعمل على مهاجمة الكنيسة رغبة في إصلاحها دون الرغبة في الخروج عليها، ولم يتآزر موقفه إلا بعد أن أعلن البابا ودعا إلى بيع صكوك الفرقان، وهنا أعلن أن هذه الصكوك إنما وجدت للإنفاق على مصارفها الشرعية مثل مساعدة الفقراء أو بناء الكنائس وما إلى ذلك، أما بيعها من أجل الإنفاق على حرب صلية لقتل مسيحيين فهذا أمر يرفضه، وكانت آراء (جون هس) في ذلك الوقت أكثر من أن يتحملها العقل المعاصر له^(١)

وقد دعي (جون هس) لحضور مجمع (كونستانس) الديني، وكان الغرض من هذا المجمع القضاء على الانقسام الديني والإصلاح الكنسي ووضع حد للهرطقة، إلا أن أتباع (جون هس) نصحوه بعدم حضور هذا المجمع، إلا أنه وجد فرصة في هذا المجمع لنشر آرائه الإصلاحية على جمهور من رجال الدين في هذا المجمع، وأنه يستطيع إقناعهم بآرائه، لكن

(١) تاريخ الكنيسة - جون لورير جـ ٤ صـ ٥٧، ٥٨، تاريخ أوربا في العصور الوسطى - سعيد عبد الفتاح عاشور صـ ٣٧١

(١) المرجع السابق صـ ١١٥ بتصرف.

الكنيسة مهلا للشك والجدل، وكان ذلك جريمة لا تغفر كما ظهر لإرازمس كتابان (مدح الغواوة) و (المخاورات) هاجم فيما الرهبان وحياتهم الفاسدة المتناقضة هجوماً شديداً^(١)

كل ذلك خدم قضية الإصلاح وأثر عليها تأثيراً بالغاً، فقد كانت مؤلفات إرازمس وترجمته للكتاب المقدس سبباً غير مباشر لحركة الإصلاح، انتقد الكنيسة مباشرة وقال إنه لا فائدة في زيارة الأماكن المقدسة، ولا في التوسل إلى القديسين، ولا شراء صكوك الغفران، لأنه بالتقى والمحبة فقط يمكن أن يحيا الإنسان حياة مسيحية حقيقة "^(٢)" ولكن رغم الجرم الذي ارتكبه إرازمس - حسب وجهة نظر الكنيسة - بترجمة الكتاب المقدس إلى اليونانية، لم يستحق عقاباً من البابا، ويفسر المؤرخون هذا الموقف "بأن إرازمس وصل إلى مكانة عالية حيث كان أميراً لرجال الأدب، كما كان محفوفاً بعطف البابا ورعايته وبكل الأساقفة والأمراء، كل ذلك أعطاه شعوراً بالأمان في أن يقول ما يشاء ويفعل ما يشاء، لأنه في مأمن ولذلك سار في طريقه بلا خوف"^(٣)

كانت دعوة إرازمس الإصلاحية تتحذذ طرقاً سلرياً، فالبابا (ليو العاشر) كان صديقاً حimماً له ومن المعجبين بآرائه وتفكيره، ومن ناحية أخرى كان إرازمس حريضاً على هذه العلاقة بالبابا ليو العاشر ومحافظاً على مكانة البابا وقداسته، حيث كان إرازمس يميل إلى أن يكون إصلاح الكنيسة على يد رجالها مع المحافظة على مراكزهم "فكان يرى أن الإصلاح واجب على أن تقوم به الكنيسة في داخلها، أو يعاونها الحكام على إصلاح نفسها"^(٤)

١) مختصر تاريخ الكنيسة - أندره ملر جـ ٢ صـ ١٩٥ طـ الثانية ١٩٧٢.

٢) تاريخ الكنيسة - جون لورير جـ ٤ صـ ٧٦.

٣) مختصر تاريخ الكنيسة - أندره ملر جـ ٢ صـ ١٩٥.

٤) محاضرات في النصرانية - أبو زهرة صـ ٢٠٠.

ذلك حتى قيام حركة الإصلاح الديني على يد مارتن لوثر ولقد تطورت عملية المطالبة بالإصلاح ومرت عملية المطالبة بالإصلاح بمرحلتين وهما أاما أن تصلح الكنيسة نفسها وعلى أيدي رجالها أي من الداخل وإما أن ترغم على الإصلاح على أيدي رجال من خارجها وبالفعل تحرك رجال من داخل الكنيسة وعلى رأسهم (يوحنا روكلين) و (إرازمس)

ويوحنا روكلين عالم في الإنسانيات، متخصص في الدراسة العربية وظف دراسته في الجانب الديني، ترجم الجزء الخاص بالعهد القديم وأثار بكتاباته ضجة من الجدل حول مفاسد الكنيسة ورذائلها، وانضم إليه بعض الآباء، ولقد نقد روكلين الخرافات والبدع التي أحاط بها رجال الدين العقيدة، وفي النهاية تكون لديه رأي عام معد للكنيسة "^(١)" إرازمس:

ولد في هولندا سنة ١٤٦٥ م ابنا غير شرعي لأحد الكهنة "^(٢)" ومكث مدة بالدير وصل خلاها إلى منصب قسيس، ثم انصرف بعد ذلك إلى دراسة الآداب، وسرعان ما ذاع صيته واشتهر، وكان أبرز فلاسفة الترعة الإنسانية في القرن السادس عشر، وكان له صوت قوي يتميز بالجرأة، لذا يعتبر أقوى من نادى بالإصلاح قبل مارتن لوثر، ووجه دعوته الإصلاحية إلى الحكام المستعينين، وكان من مبادئ دعوته قراءة الكتاب المقدس لغير رجال السلوك الكهنوتي، وتحذيب عقول الناس، وتبيه مداركهم لايستطيعوا فهم الكتاب المقدس وينتفعوا به، وكان لدعوته أثر بعيد المدى على حركة مارتن لوثر الإصلاحية، وظهر له نسخة تحليلية للكتاب المقدس باللغة اليونانية قبل حركة الإصلاح بسنة ومعها ترجمة لاتينية مصححة لأخطاء الترجمة الرسمية، مما جعل نسخة

١) تاريخ الكنيسة - جون لورير جـ ٤ صـ ٦١ باختصار.
٢) المرجع السابق صـ ٧٥.

باللغة الألمانية لغة بلاده.

سادساً: جمع إرازمس بين الإخلاص للترعة الدولية والعنف على البائسين... وكان احتجازه للحاكم الظالم لا يقل عن احتجازه للقسيس الفاسد^(١)

في حين كان لوثر ضد رجال الكنيسة دائماً وينحاز إلى جانب الشعب ضد البابوات. ومع هذه الاختلافات كان كلاهما يتفق مع الآخر في الرغبة في إصلاح الكنيسة، وأن ذلك لا يكون إلا بالرجوع إلى تعاليم الإنجيل، وأن يتمكن الرجل العادي من قراءته وفهمه، ولا سبيل إلى قراءة الإنجيل ولا فهمه إلا إذا ترجم إلى لغة يفهمها الناس، وحقن لوثر تلك الرغبة وترجم الإنجيل إلى الألمانية.

وعلى أية حال فقد تأثر لوثر بإرازمس تأثراً قوياً، وما يوضح ذلك أن لوثر نفسه وصف إرازمس بقوله عنه "إنه موضع فخرنا، ومقد آمالنا"^(٢)

سافونارولا:

ظهر قبل مارتن لوثر بقليل راهب ثائر بإيطاليا اسمه (سافونارولا) الذي أراد أن يطهر إيطاليا والكنيسة كلها من الفساد، وكان يواجه الحكام والعلماء بشجاعة قائلًا (إن أردتم حكومة جيدة أطليعوا الله) وكان يرسل أتباعه حتى من الأولاد الصغار ليجمعوا له الكتب المخللة بالأدب والصور المثيرة للشهوات ويحرقها بالنار، وقد واجه (سافونارولا) البابا (اسكيندر السادس) الذي كان بشهادة جميع المؤرخين يستهين بجميع القوانين ويفرق نفسه في الشهوات معنا في القسوة لدرجة أنه لم يكن يتورع أن يدس السم لأتباعه ورفقاً له الرهبان فأحرقوا عندما كان سن مارتن لوثر خمس عشرة سنة، وبذلك كان (سافونارولا) أول من بدأ حركة الإصلاح في إيطاليا، وكان شعاره الإصلاح والتوبية، يعني إصلاح

١) النهضة الأوروبية - سدي دارك ص ١٥٦ ترجمة وتعليق محمد بدران ط - لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٤١

٢) المرجع السابق ص ١٥٥

لذلك لما كانت دعوته هادئة ودعوة مارتن لوثر تتسم بالعنف في أسلوبها وطريقتها نبذها إرازمس، ورفض آراء لوثر ولم يساعدته، لأن إرازمس رأى أن لوثر من سلطان الكنيسة، وهز كيانها، واعتدى على قداستها.

أوجه الخلاف بين إرازمس ومارتن لوثر:

أولاً: كان إرازمس هادئاً يكشف عن العيوب والمساوئ ولا يستطيع إصلاحها أما لوثر فكان يميل إلى الاندفاع والعنف مستبداً برأيه يكشف عن العيوب ويضع لها الحلول وبين كيف تكون طريقة الإصلاح فرارازمس كان مصلحاً هادئاً ولوثر كان ثائراً. "فلم يكن إرازمس رجل الساعة بالنسبة لعصره لعدم رغبته في تحقيق ما يدعو إليه بطريقة حاسمة وهذا حرمته من تعاطف الكاثوليك وأيضاً البروتستانت لذلك وصفوه بأنه نصف كاثوليكي حائز متعدد معلق في الوسط"^(١)

ثانياً: إرازمس لم يلق اضطهاداً رغم أنه كانت تربطه صلة قوية بالملوك والأباربر البروتستانت، وفي الوقت نفسه كانت الكنيسة تعرض عليه المناصب العليا فيها، أما لوثر فإنه لاقى اضطهاداً وعقاباً وحكم عليه بالحرمان.

ثالثاً: رغم تنديد إرازمس بمجاذيف الكنيسة ومساويتها إلا أنه لم ينكر أي أصل من أصول العقيدة الكاثوليكية، أما لوثر فقد رفض بعض التعاليم.

رابعاً: رفض إرازمس فكرة قيام كنائس قومية لما يترتب عليها من تفكير لوحدة الكنيسة الأم، وبالتالي تفكير الوحدة الأوروبية، فالكنيسة في نظره بالإضافة إلى مكانتها الدينية كانت هي الحافظة على وحدة أوروبا وتماسكها من التمزق، أما لوثر رأى ضرورة إنشاء كنائس قومية عندما فشل في إصلاح الكنيسة وأن ذلك مسألة تنظيمية،

خامساً: كان إرازمس يكتب باللغة اللاتينية السائدة في ذلك العصر، أما لوثر فكان يكتب

١) تاريخ الكنيسة - جون لوربر ج ٤ ص ٨٣ بتصرف.

الفصل الثالث

زعماء حركة الإصلاح البروتستانتي

لقد هيئت موجات من ثورة الإصلاح في تيارين عنيفين لا يقل أحدهما عن الآخر خطورة فيما يصبوا إليه الأول: تيار الفكر والثقافة والثاني: تيار المنصفين من متعقلين القساوسة. وكان التيار الفكري يرجع إلى الحروب الصليبية على الشرق الإسلامي فعادت بعد خيبة الأمل تحمل آثاراً من الروح الإسلامية ومن الثقافة الإسلامية، وقارنت حيالها بما لقيته في حاضرات الإسلام، فأدركت أنها متأخرة متخلفة، فراحت تترجم علوم المسلمين لتبلغ شاؤاً في الحضارة، ولم يكن التيار الفكري وحده في ميدان الثورة ضد الكنيسة، بل كان هناك من داخل الكنيسة صوت يئن ويُسخط، وذلك هو صوت مارتن لوثر.... وتكونت على صيحات لوثر ديانة جديدة وهي مسيحية أيضاً وتسمى: اليروتستان: يعني المترضون، وكان معه ثائرون ضد المسيحية الكاثوليكية فكان في سويسرا زونخلي، وكان بعده كلفن الفرنسي "^(1)"

أولاً: مارتن لوثر:

في القرن الخامس عشر بلغ الاستياء العام من الكنيسة الكاثوليكية ذروته، من جشع وسلط البابوات ومفاسدهم العديدة وفرض الضرائب الباهظة وحرق المعارضين والمصلحين بتهمة المهرطقة، والحجر على العقول في فروع العلوم، وتحريم قراءة الإنجيل إلا باللغة اللاتينية التي لا يعرفها عامة الناس، وتحريم الزواج على كل القساوسة والرهبان، وكذلك مهزلة صكوك الغفران فلهذه الأسباب وأسباب أخرى كثيرة من هذا القبيل ظهر في القرن السادس عشر دعاء للإصلاح الديني وتخلص المسيحية من هذه الأدран وكان على رأس المصلحین (مارتن لوثر الألماني) (زونبولي السويسري) (كلفن الفرنسي).

^{١)} المسيحية الرابعة - ٣ / ٦٠، وف شلم، ص: ١٥٣ - ١٥٥ بتصريف ط - مكتبة الأزهر، ١٩٨٠ م.

-۸۷۰-

رجال الكنيسة، تعلق به الإيطاليون والتفوا حوله وتضمنت دعوته انتقاد رجال الإكليروس، والتأسف على الحالة التي سادت في عصره، ظل كذلك إلى أن انتهى أمره بالاضطهاد من البابا (اسكيندر السادس) وتوجيه التهم له، وكان البابا يتحين الفرصة للقضاء على (سافونارولا) وحزبه وأقامه بالخيانة بسبب هجومهم على مفاسد الكنيسة التي انتشرت في جنبات أوروبا كلها، فا لهم بالهرطقة وبطشه عليه وتم إعدامه حرقاً مع رفقاء

بذلك يتبيّن أنّه عندما كان بعض المستيرين في الكنيسة يحاولون إصلاح الكنيسة كانوا يطّلبون بعقد بعض المجامع الكنسية ووضع خطة لإصلاحها، لكن هذه المجامع الكنسية فشلت في الإصلاح، حتى تبيّن لكثيرين أنّه لا يمكن أن يحدث إصلاح من خلال النظام السائد في الكنيسة في ذلك الوقت، وكان لابد من ثورة تكسر النظام القائم وتغيّر حتى يمكن أن يتم الإصلاح، وقد قام بهذه الثورة بعض الأفراد كل في عصره وبلده، لكن سلطان الكنيسة الرهيب كان يجهض حركاتهن الثورية.

^{١)} تاريخ الكنيسة - جون لورimer - ٢ ص ٤٨ بتصريف.

أولاً: تكوين مارتن لوثر الشخصي .

من الأسباب العامة والأساسية التي دفعت لوثر إلى القيام بحركته شخصياً وقوه إيمانه بمذهبة، فقد اتصف بشجاعة لا تقهقر، وقوة عظيمة بعثته على إقناع مرديه بالثقة الكاملة من غرضه، مما جعل فريقاً كبيراً من الشعب الألماني يعتقدون أنهم يستطيعون بقيادة لوثر الوصول إلى الحقيقة الخالصة، التي قد ظلت فترة طويلة الزمن مخفية بين طيات فساد الكثير من الكتب الكاثوليكية، وأن تلك الحقيقة لو نادى بها لوثر خارج ألمانيا لتقبلها العالم كله.

ومن هنا نشأ في ألمانيا أمل جديدة في حياة مستقبله أفضل من الناحية الدينية والسياسية والاجتماعية، هذه الآمال لم تتحقق في سهولة كما تصور أصحابها، غير أن نجاح هذه الحركة قد كان من دعائهما تلك الآمال العريضة التي غمرت بها النفوس في ذلك الوقت. وليس من شك في أن شخصية (لوثر) القوية قد جذبت إليه النفوس فهو قد فهم الروح الألمانية فهما عميقاً فصار خير معبير عن آمالها ورغباتها، وليس يفوتنا ما كان له من حظ وفير في فهم اللغة الألمانية وتعمق أصولها وتقدير الألمان لملكاته الدينية، وحربه المتصلة ضد الفساد الذي ساد الكنيسة الرومانية ^(١).

ثانياً: زيارة مارتن لوثر لروما:

في سنة (١٥١٠م) زار مارتن لوثر روما لمدة شهر، واطلع بنفسه على أخطاء ومساوئ الكنيسة الكاثوليكية، وركز لوثر في زيارته لروما على الأخطاء التي أظهرها مفاسد الأخبار وترفهم، والمظاهر العصرية والسياسية والعسكرية التي طبعت بها حياة رجال الدين في أوروبا، لهذا فإن لوثر جذب انتباذه انحراف رجال الدين عن بساطة المسيحية ونقاومها الأولى، ومن هنا كان انطباعه عن البابوية انطباعاً سيئاً أثراً في نفسه، ودفعه وبالتالي إلى

^١ تاريخ أوروبا الحديث د / زينب عصمت ص ١١٣

وكان أول صوت يصبح بالإصلاح هو صوت (مارتن لوثر) الذي ولد سنة ١٤٨٢ في مدينة أيزليبن، وهي بلدة صغيرة في مقاطعة سكسونيا بألمانيا، وكان والدها فقير، يشتغلان بفلاحة الأرض ^(٢)

نشأ (مارتن لوثر) في مدينة (إيزليبن) في مقاطعة سكسونيا في أسرة فقيرة، وعاش عيشة بائسة، وكان أبواه يقصوان عليه، كما تأثر بشبح الخوف الذي كان متسلطاً على الأذهان آن ذاك بسبب الفرضي الأخلاقية والدينية التي انتشرت في هذا الوقت، وتلقى دراسة القانون في جامعة (أرفورت) وحصل على الماجستير في القانون من نفس الجامعة عام ١٥٠٥م، ثم بدأه أن يغير طريقه، فلم يلبث أن انصرف عن هذه الحياة العلمية ودخل في سلك الرهبنة ودخل دير الرهبان المعروف بسان أغسطس ^(٣)

ووالد لوثر كان يعمل في أحد المناجم ويدعوا أن فقر أسرة لوثر أثر في نشأته إلى حد كبير، فنشأ لوثر في ظل حياة صعبة قاسية وتعلم لوثر أصول اللغة والترتيل الديني، وأتم دراسة اللاتينية في مدينة (إيزليبن) وبعد أن تعلم اللغة اللاتينية والأصول الدينية الكاثوليكية اتجه للدراسة الحقوق في جامعة (أرفورت) تلبية لرغبة والده الذي كان يحلم أن يرى ابنه رجل قانون لأن القانون والحقوق آنذاك كانت على الموضوعات اللامعة والمؤثرة في الحياة الاجتماعية ^(٤).

هناك أسباب كثيرة دفعت مارتن لوثر للقيام بحركته الإصلاحية وثورته ضد الكنيسة الكاثوليكية ولكن ساقتصر على أهم هذه الأسباب الخاصة التي دفعته للقيام بحركة الإصلاح البروتستانتي، وهي كما يلي :

^١ محاضرات في النصرانية - محمد أبو زهرة ص ١٦٢ ، تاريخ أوروبا الحديث د / زينب عصمت ص ١١٠ ، أوروبا مطلع العصور الحديثة - د / عبد العزيز الشناوي

^٢ أوروبا مطلع العصور الحديثة - د / عبد العزيز الشناوي ص .

^٣ تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر - د / عبد الفتاح أبو عليه وزميله ص ٩٨ ط - دار المريخ.

على القسّس والرهبان والراهبات، ودعوة الكنيسة والبابا أهـماً المـالـكـانـ لـلـمـعـرـفـةـ الـحـقـيقـيـةـ والـحـقـقـ، وـقـدـ أـبـطـلـ مـارـتنـ لـوـثـرـ خـمـسـةـ مـنـ الأـسـارـ الـكـنـسـيـةـ، وـأـبـقـىـ عـلـىـ سـرـ الـمـعـوـدـيـةـ، وـالـعـشـاءـ الـرـبـانـيـ.

ولـقـدـ أـخـذـ يـعـلـنـ أـنـ التـبـرـكـ بـالـمـقـدـسـاتـ وـالـحـجـ إـلـيـهاـ، وـتـكـرـارـ الصـلـاـةـ لـاـ يـجـدـيـ العـاصـيـ وـلـاـ يـغـنـيـ عـنـ تـوـبـةـ نـصـوحـ، وـأـنـ أـحـدـاـ مـنـ الـخـلـقـ مـهـمـاـ تـكـنـ قـدـسـيـةـ لـاـ يـمـلـكـ لـأـحـدـ غـفـرـانـاـ وـلـاـ يـسـطـعـ.

كـانـ لـوـثـرـ بـعـدـ عـودـتـهـ مـنـ رـوـمـاـ مـأـخـوذـاـ بـهـذـهـ الـأـفـكـارـ، قـدـ اـسـتـولـتـ عـلـىـ نـفـسـهـ وـسـوـغـ لـكـلـ هـذـاـ أـنـهـ قـدـ تـرـعـزـعـتـ ثـقـتـهـ بـرـجـالـ الـدـيـنـ، وـإـنـ لـمـ يـعـتـزـمـ الـثـورـةـ عـلـيـهـمـ أـوـ عـلـىـ أـرـائـهـمـ، وـلـكـنـ

الـحـوـادـثـ كـانـتـ تـدـفعـهـ إـلـىـ أـنـ يـعـلـنـ اـسـتـنـكـارـ أـرـاءـ رـجـالـ الـدـيـنـ وـالـجـهـرـ بـذـلـكـ.

وـذـلـكـ لـأـنـ الـبـابـاـ (ليـوـ العـاـشـرـ) أـرـادـ أـنـ يـعـيدـ بـنـاءـ كـنـيـسـةـ بـطـرـسـ فـيـ رـوـمـاـ، وـذـلـكـ يـحـتـاجـ إـلـىـ مـقـدـارـ مـنـ الـمـالـ غـيرـ يـسـيرـ، فـقـرـرـ أـنـ يـجـمـعـهـ مـنـ صـكـوكـ الـغـفـرـانـ يـبـعـهـاـ -ـ فـذـهـبـ الرـاهـبـ

تـزـلـ (¹) إـلـىـ أـلـمـانـيـاـ وـمـعـهـ تـلـكـ الصـكـوكـ الـتـيـ يـرـيدـ يـبـعـهـاـ وـأـخـذـ يـعـلـيـ عـلـىـ أـمـرـهـاـ وـيـسـالـغـ فـيـ

قـدـاسـتـهـ وـكـانـ مـاـ قـالـهـ هـذـاـ الرـاهـبـ لـلـنـاسـ (أـنـ الرـجـلـ إـذـ اـرـتـكـبـ الـخطـيـةـ مـعـ الـعـذـراءـ

الـمـلـكـةـ نـفـسـهـاـ فـهـذـهـ الصـكـوكـ كـفـيلـةـ بـأـنـ تـمـنـحـ الـغـفـرـانـ الـكـامـلـ) وـهـكـذـاـ تـرـدـيـ هـذـاـ

الـرـاهـبـ فـيـ هـاوـيـةـ سـحـيـقـةـ مـاـ لـهـ مـنـ قـرـارـ، حـيـثـ تـطاـوـلـ عـلـىـ سـيـدةـ لـهـ مـكـانـتـهـاـ وـتـقـدـيرـهـاـ

الـعـمـيقـ فـيـ نـفـوسـ الـمـلـاـيـنـ مـنـ الـمـسـيـحـيـنـ وـالـمـسـلـمـيـنـ، وـحـرـضـ عـلـىـ اـرـتـكـابـ الـخـطاـيـاـ، عـنـدـئـذـ

ثـارـ لـوـثـرـ الـذـيـ لـاـ يـعـرـفـ أـيـ شـيـءـ يـسـتـرـ الذـنـبـ إـلـاـ النـدـمـ عـلـىـ مـاـ كـانـ بـالـإـلـقـاعـ عـنـهـ فـيـمـاـ

يـكـونـ، وـرـجـاءـ رـحـمـةـ الـدـيـانـ، ثـارـ لـوـثـرـ عـلـىـ تـلـكـ الصـكـوكـ، وـكـتـبـ فـيـ بـطـلـاـهـ اـحـتـجاجـاـ

عـلـقـهـ عـلـىـ بـابـ الـكـنـيـسـةـ، وـكـانـ هـذـاـ أـثـرـهـ فـيـ الـعـامـةـ وـالـخـاصـةـ (²)

¹) هنا تزـلـ رـاهـبـ منـ أـتـابـعـ الطـائـفةـ الـدـينـيـةـ الـتـيـ تـسـمـيـ الدـوـمـنـيـكـانـ وـهـبـطـ مـدـيـنـةـ فـيـرـجـ سـنـةـ ١٥١٧ـ يـبـعـ صـكـوكـ الـغـفـرـانـ" أـورـوـبـاـ فـيـ مـطـلـعـ الـعـصـورـ الـحـدـيـثـ -ـ دـ /ـ عـبـدـ العـزـيزـ الشـنـاوـيـ جـ ١ـ صـ ٣١٤ـ .

²) مـخـاضـرـاتـ فـيـ الـنـصـرـانـ -ـ مـحـمـدـ أـبـوـ زـهـرـةـ صـ ١٦٤ـ .

الـنـقـدـ ثـمـ الـثـورـةـ الـدـينـيـةـ عـلـىـ الـبـابـوـيـةـ بـعـدـ أـنـ تـبـتـ مـاـ تـفـعـلـهـ (¹)ـ .

وـمـارـتنـ لـوـثـرـ لـمـ أـتـيـتـ لـهـ فـرـصـةـ زـيـارـةـ رـوـمـاـ كـانـتـ تـلـكـ الـزـيـارـةـ فـيـ مـهـمـةـ رـسـيـةـ مـثـلـاـ

لـطـائـفـةـ الـقـدـيسـ أـوـغـسـطـنـ حـيـثـ عـيـنـ رـئـيـساـ لـمـنـطـقـةـ دـيـرـيـةـ تـضـمـ أـحـدـ عـشـرـ دـيرـاـ مـنـ الـأـدـيـرـةـ

الـتـابـعـةـ لـهـذـهـ الـطـائـفـةـ.

وـكـانـ أـوـلـ رـدـ فـعـلـ عـنـدـ لـدـىـ مـشـاهـدـتـهـ الـمـدـيـنـةـ رـهـبـةـ مـشـوـبـةـ بـالـلـوـرـعـ فـهـتـ يـقـولـ (ـسـلامـ

عـلـيـكـ رـوـمـاـ الـمـقـدـسـ)ـ وـقـامـ بـالـشـعـائـرـ الـدـينـيـةـ شـأنـهـ شـأنـ أـيـ حاجـ (ـإـلـىـ رـوـمـاـ)،ـ لـكـنـ رـأـيـ فـيـهـاـ

مـنـ الـانـخـالـلـ الـخـلـقـيـ الـذـيـ كـانـ شـائـعاـ وـقـتـذاـكـ مـاـ رـأـيـ،ـ وـقـدـ دـفـعـهـ هـذـاـ إـلـىـ أـنـ وـصـفـ رـوـمـاـ

بـأـنـهـ (ـتـدـعـوـ لـلـمـقـتـ)ـ (²)ـ .

وـفـيـ أـثـاءـ زـيـارـتـهـ لـرـوـمـاـ تـبـرـكـ بـزـيـارـةـ كـلـ الـأـمـاـكـنـ الـمـقـدـسـةـ فـيـهـاـ وـلـكـنـ هـالـهـ اـهـيـارـ الـمـعـايـرـ

الـأـخـلـاقـيـةـ لـدـىـ رـجـالـ الـكـنـيـسـةـ وـانـغـماـسـهـمـ فـيـ حـيـاةـ الـبـذـخـ وـلـتـبـذـلـ وـالـمـلـذـاتـ.

وـقـدـ عـلـقـ لـوـثـرـ عـلـىـ مـاـ شـاهـدـهـ فـيـ رـوـمـاـ بـجـملـةـ قـصـيـرـةـ وـهـيـ "ـإـنـ كـلـ مـنـ يـذـهـبـ إـلـىـ رـوـمـاـ

يـشـعـرـ بـأـنـ عـقـيـدـتـهـ الـدـينـيـةـ تـرـنـجـ تـحـ الضـرـبـاتـ الـتـيـ تـصـبـيـهـ مـنـ جـرـاءـ مـاـ يـرـىـ هـنـاكـ،ـ وـعـادـ

لـوـثـرـ إـلـىـ أـلـمـانـيـاـ وـقـلـبـهـ مـلـيـءـ بـالـسـخـطـ عـلـىـ رـجـالـ الـكـنـيـسـةـ (³)ـ .

وـبـذـلـكـ يـكـونـ لـوـثـرـ خـدـعـ لـأـنـهـ قـدـ تـخـيلـ شـيـئـاـ وـظـهـرـ عـلـىـ خـلـافـهـ،ـ وـكـانـ يـتـوقـعـ وـيـعـتـقـدـ فـيـ

رـجـالـ الـدـينـ مـاـ يـعـتـقـدـ مـنـ قـدـاسـةـ وـصـلـاحـ،ـ فـظـهـرـ لـهـ عـكـسـ ذـلـكـ تـمـاماـ،ـ وـصـدـمـ لـوـثـرـ صـدـمةـ

عـنـيفـةـ،ـ وـلـكـنـهـ لـمـ يـلـبـثـ أـنـ عـادـ إـلـىـ أـلـمـانـيـاـ حـانـقـاـ مـسـتـكـراـ بـعـدـ أـنـ ذـهـبـ رـاضـيـاـ مـقـدـسـاـ،ـ وـكـانـ

مـنـ نـتـائـجـ زـيـارـتـهـ لـرـوـمـاـ أـنـ رـسـخـتـ فـيـ قـنـاعـتـيـنـ الـأـوـلـيـ:ـ اـسـتـشـراءـ الـفـسـادـ فـيـ الـبـابـوـيـةـ،ـ

وـالـثـانـيـ:ـ وـحـوبـ الـعـودـةـ بـالـمـسـيـحـيـةـ إـلـىـ طـهـرـهـاـ الـأـوـلـ،ـ فـأـنـكـ العـدـيـدـ مـنـ الـطـقـوـسـ

وـالـمـارـسـاتـ الـتـيـ اـبـتـدـعـتـهـاـ الـكـنـيـسـةـ الـكـاثـوـلـيـكـيـةـ،ـ مـنـ بـيـعـ لـصـكـوكـ الـغـفـرـانـ،ـ وـفـرـضـ الـعـزوـيـةـ

¹) تـارـيخـ أـورـوـبـاـ الـمـدـيـثـ وـالـمـعـاصـرـ -ـ دـ /ـ حـسـنـ عـبـدـ الـفـتـاحـ أـبـوـ عـلـيـ وـزـمـيلـهـ صـ ٩٩ـ .

²) أـورـوـبـاـ فـيـ مـطـلـعـ الـعـصـورـ الـحـدـيـثـ -ـ دـ /ـ عـبـدـ العـزـيزـ الشـنـاوـيـ جـ ٣١٣ـ .

³) المـرـجـعـ السـابـقـ صـ ٣١٣ـ .

دراسة للدين كانت تتميّزاً لها.

يوضح صاحب كتاب "قصة الحضارة" رأى مارتن لوثر في الفلسفة قبل أن يعينه لتدريسها، فيقول " وأرسله والده الميسور الحال عام ١٥٠١ إلى في أوفورت وكان برنامج الدرس يركز على اللاهوت والفلسفة وكانت لا تزال كلامية ولكن المذهب الاسمي لأوكهام كان قد انتصر هناك، ولعل لوثر قد فطن إلى رأي أووكهام، الذي يذهب إلى أن الباباوات وال المجالس الدينية يمكن أن تخطئ، وكان من رأيه أن فلسفة الكلام في آية صورة الباباوات وال المجالس الدينية يمكن أن تخطئ، وكان من رأيه أن فلسفة الكلام في آية صورة من صورها غير مستحبة، حتى أنه امتدح لصديق له " لا يتعلم الروث الذي يقدم باعتباره فلسفة" (١).

هكذا يتبيّن أن لوثر أثناء دراسته للفلسفة كان يعتقد عدم صلاحيتها، حتى بعد أن عين مدرساً لها في جامعة فتيرج سنة ١٥٠٨ م.

رابعاً: الخراط لوثر في سلك الرهبنة :

وهذا الموضوع قد تكلم عنه كثير من ألفوا وكتبوا عن مارتن لوثر وما ذلك إلا لأنه جاء فجأة من مارتن لوثر حيث بدا له أن يغير طريقه بعد أن حصل على درجة الجامعية فدخل في يونيو سنة ١٥٠٥ م ديراً يتبع طائفة القديس أوغسطين " وأصبح راهباً يتنمي إلى هذه الطائفة الدينية وكان عمره إذ ذاك اثنين وعشرين عاماً وتتوفر على العبادة، من صوم وصلة، وأخذ نفسه بأسباب الرهد والتقصيف وتعذيب النفس ابتغاء التخلص من خطایاه والظفر برحمـة الله، وعكف على دراسة الكتب المقدسة دراسة مستفيضة، وكذلك كتابات القديس أوغسطين، ويعلل بعض الباحثين تحول لوثر الفجائي إلى حياة الرهبنة بأنه نشأ في بيـة سيطرـت الأفـكار الدينـية فيها عـلى عـقول النـاس، وصـورـت لهمـ المسيحـ في صـورـة المسـقمـ الجـبارـ، الذي يـصبـ العـذـابـ صـباـ علىـ الرـؤـوسـ فيـ الآـخـرـةـ، بـسبـبـ الـجـرـائمـ المـنـكـرـةـ

(١) قصة الحضارة / ول ديوارات ص ١٠

ووصف مارتن لوثر بـبا رومـا بأنه "المسيـحـ الدـجالـ الذـي يـحكـمـ فيـ الإـدـرـاةـ الـبـابـوـيـةـ فيـ روـماـ" ووصفـ الرـهـبـانـ بالـخـنـازـيرـ والـكـهـنـةـ بالـحـمـيرـ والـكـنـيـسـةـ بـأـنـاـهاـ بـيـتـ دـعـارـةـ وأـكـثـرـ منـ ذـلـكـ دـعـاـ إلىـ الـعـلـمـ العنـيفـ وـقـالـ: "إـذـاـ كـانـ السـارـقـونـ يـعـاقـبـونـ بـالـسـيـفـ وـالـقـتـلـ بـالـمـشـنـقـةـ، وـالـهـرـاطـقـةـ بـالـنـارـ، فـلـمـاـذـاـ لـاـ تـعـضـونـ مـتـقـيـنـ السـلاـحـ لـلـقـبـضـ عـلـىـ كـلـ أـسـيـادـ الـهـلاـكـ الـأـبـدـيـ الـأـشـرـارـ هـؤـلـاءـ عـلـىـ الـبـابـوـاتـ وـالـأـسـاقـفـةـ وـالـكـرـادـلـةـ وـكـلـ عـصـابـةـ سـدـومـ الـرـوـمـانـيـةـ" (٢)

ثالثاً: دراسته للفلسفة الإسلامية وفلسفة العصور الوسطى:

عجز مارتن لوثر عن إتمام دراسته القانونية التي كان أبوه يمهّد نفسه من أجلها، وأرادها لابنه، فأرسله إلى الجامعة ليدرس القانون، فترك لوثر القانون، وعكف على دراسة اللاهوت، وانصرف إليها، لأنه أحس بترعنة دينية قوية تدفعه إلى الانقطاع لذلك، وقد كان شديد التورع مبالغًا في تقدير سيئاته فقد سيطرت على مشاعره نفسه اللوامة، حتى لقد قال أنه لن ينجو من عذاب الجحيم إلا برحمة رب الرحيم، وكان لهذا الإحساس الديني الدقيق وذلك التروع اللاهوتي موضع رعاية رجال الكنيسة حتى لقد أوصوا به خيراً أولى الأمر من رجال الدنيا (٣)

" فـمـهـدـ لـمـارـتـنـ لوـثـرـ تـدـرـيـسـ مـادـةـ الـفـلـسـفـةـ فـيـ جـامـعـةـ فـتـيرـجـ سـنـةـ ١٥٠٨ـ مـ بـعـدـ أـنـ كـانـ قـدـ درـسـ الـمـسـائـلـ الـدـينـيـةـ وـالـلـاهـوـتـ، وـظـلـ عـاـكـفـاـ عـلـىـ هـذـهـ الـدـرـاسـةـ الـتـيـ كـانـ يـشـكـ فـيـ صـلـاحـيـةـ إـذـ كـانـ يـدـرـسـ فـلـسـفـةـ أـرـسـطـوـ وـظـلـ عـاـكـفـاـ عـلـىـ هـذـهـ الـدـرـاسـةـ الـوـسـطـيـةـ الـتـيـ كـانـ يـرـىـ صـاحـبـهاـ فـيـ نـظـرـةـ ماـ هوـ إـلـاـ مـنـ عـبـدـةـ الـأـوـثـانـ" (٤)

ويجب أن يلاحظ أن دراسة الفلسفة في ذلك العصر كانت تحت ظل الدين وفي خدمته، ويقوم بها رجال الدين أنفسهم، لذلك لم تكن دراسة مارتن لوثر للفلسفة بعيدة لها عن

(١) المرطةـةـ فـيـ مـسـيـحـيـةـ - وـيلـترـ صـ ١٩٤ـ تـرـجـةـ جـمالـ سـالـمـ طـ دـارـ التـوـبـرـ لـلـطـبـاعـةـ وـالـنـشـرـ بـرـوـتـ.

(٢) المـرـجـعـ السـابـقـ صـ ١٦٣ـ

(٣) أوروبا مطلع العصور الحديثة - د / عبد العزيز الشناوي ص ٣١٢

فيماه بالتدريس الجامعي إلى أن الإنسان مليء بنوازع الشر وليس في مقدور الإنسان أن يكون متصلة بالله إلا إذا كان قلبه فيه الإيمان بالله، وأن الله يغفر الذنوب جيئاً إذا تاب الإنسان المؤمن إليه وإنه لا خلاص للإنسان إلا بالإيمان برحمه الله، وإن الغرض من الصلاة وسائر أنواع العبادات ليس للتخلص من الذنوب، ولكن إسداء الحمد والشكر للإله الرحيم وتعرف هذه العقيدة باسم (عقيدة التبرير بالإيمان) ^(١).

أخذ لوثر نفسه بحياة الرهبنة الشديدة وأكثر إلى حد لا يعقل ولا يتصور من الصلاة والقراءة وغيرها من الأفعال إذ أنه أقسم قسماً مغلظاً بأن يتزم أو يلزم الخصاصة والعفة والطاعة.

كتابات لوثر ضد الكنيسة.

عقب نزول الراهب (حنا ترل) إلى مدينة (فبرج) سنة ١٥١٧ م ليبع صكوك الغفران، وما كان ي قوله من تصريحات في منتهى الحماقة والتهور والجهالة، أثارت هذه التصريحات السخط في نفس لوثر فتحرك لهاجمة صكوك الغفران... وعلق على باب الكنيسة احتجاجاً شديداً يتضمن خمسة وسبعين بندًا ضد صكوك الغفران، ودعا لوثر إلى مناقشة كل من يريد من العلماء، وذاع أمر هذه الوثيقة، وطبع بمعرفة صديق له ووزعت في طول البلاد وعرضها، ثم وجه لوثر دعوة للحكام الألمان ليتعمموا الإصلاح فتوجه سنة ١٥١٩ م لدعوة الأمراء ليتعمموا هذه الحركة الإصلاحية، وكان عدد كبير من حكام المقاطعات في ألمانيا يرجبون بهذه الحركة قلباً وقولاً نظراً للمكاسب المادية والسياسية التي تعود عليهم من ورائها ^(٢).

وهكذا تطورت الحركة اللوثرية وانتشرت سريعاً بعد ظهورها بوقت قليل.

^١ أوروبا في مطلع العصور الحديثة - د / عبد العزيز الشناوي ص ٣١٣.

^٢ المرجع السابق ص ٣١٧.

التي كان الناس يرتکبونها، ومن هنا تسلطت على لوثر روح القلق ^(١). أصبح لوثر أستاذًا للاهوت في جامعة فتبرج، ونجح بمحاجأ عظيماً في مهمته في التدريس والوعظ، وقد كانت السنوات التي قضتها في هذه الحياة الدينية مليئة بدراساته المستقصبة لعلم اللاهوت، وبأعمال التقشف وتعذيب النفس.. ومع ذلك لم يستطع أن يتلخص من حالة القلق التي كانت تساوره إلى أقصى الحدود.

ولعل هذه الحالة هي التي جعلته يسلك الرهبانية "إن لوثر كان معقداً نفسياً وكان خياله ملتهباً وظل ضميره يؤنبه فشكلت عنده بالذنب فقرر أن يترك دراسة القانون ويتجه إلى الدراسات الدينية فدخل في أحد أديرة القديس أوغسطين أملأ في تخليص نفسه وتطهيرها من الذنوب والخطايا ليتوب هذا هو السبيل إلى الوصول لرحمة الله ^(٢).

بعد هذه الحالة الطويلة من القلق توصل مارتن لوثر بعد اطلاعاته العديدة إلى أن الإيمان هو خير وسيلة لتخليص الروح و (أن التبرير يكون بالإيمان وحده) أي أن الإيمان المطلق برحمه الله وسيلة إلى الخلاص من عقابه كانت هذه العقيدة أساساً للثورة الدينية التي بشر بها وكانت تتضمن إلغاء نظام الكنيسة الذي ساد أيام العصور الوسطى حيث كان الاعتماد كله يقوم على الأسرار والتقاليد الدينية وأعمال البر التي تقوم بها المنشآت الدينية. فكانت هي المتسلطة على أرواح الأفراد وحياتهم اليومية وما من شيء كان يمكن من القضاء على تلك السلطة أكثر من عقيدة لوثر التي نادى بها وقد رفعته عقيدته المشار إليها إلى مصاف أئمة المصلحين الدينيين ^(٣).

من هذا يتبيّن لنا أن لوثر لما عين أستاذًا للاهوت في جامعة فتبرج جعل رسالته الأولى في الحياة التدريس والوعظ وقد أصاب في كلاميدين بمحاجأ رائعاً، وأنه قد هدأ تفكيره أثناء

^١ أوروبا في مطلع العصور الحديثة - د / عبد العزيز الشناوي ص ٣١٢.

^٢ تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر - د / حسن أبو عليه، د / إسماعيل باغي ص ١٠١.

^٣ تاريخ أوروبا الحديث - د / زينب عصمت ص ١١٤.

والإقطاعيات الزراعية الشاسعة والضرائب والمدaiا والصدقات، وجه لوثر في كتاباته ضد الكنيسة نظره على الشعب الألماني وهو أن أحياe الشعور الوطني الألماني سيساعد على ثورته ضد البابوية المقيمة في روما.

بهذا توصل مارتن لوثر إلى آرائه، وأخرجها في أسفار ثلاثة أطلق عليها رسائل الإصلاح. الأولى: موجهة للمدنيين بالألمانية يحثهم فيها على المساهمة في إصلاح الكنيسة.

الثانية: باللاتينية موجهة إلى رجال الدين.

الثالثة: غريبة من نوعها تتعلق بالحرية المسيحية وموجهة إلى البابا (ليو العاشر).

كما أن لوثر ركز على حرية الفرد المسيحي فأبرز الفرد وأعطاه من السلطة ما يجعله يحس بحريته وهكذا، كما أن ترجمة لوثر للكتاب المقدس إلى الألمانية كان له وقع شديد على الناس، فقد كانت الصدمة شديدة وقوية عندما أخذ الناس في ألمانيا يقرءون في الكتاب المقدس المترجم إلى الألمانية والذي ترجمه لوثر أن (القديس بطرس) أخطأ، وأن ما ناله كان بسبب هذا الخطأ، ومن هنا أخذ الناس يشكرون في عصمة بطرس وخلفائه، كما أن القارئ بدأ يكتشف أنه ليس هناك من سند يثبت عبادة العذراء أو القديسين، أو ضرورة عدم زواج القس، أو حق صكوك الغفران، أو تقديس مخلفات الماضين من الأتقياء، وأخذ الفرد الألماني يحس بالفارق الواسع بين بساطة المسيح وتلاميذه.... وبين البذخ والترف والقصور التي يزهوا بها رجال الدين في روما وخارجها^(١).

وعباً حاول البابا أن يجعل لوثر يتراجع عن آرائه وأخذت الحرية الدينية تنمو بسرعة عجيبة، ولاسيما أن احتجاج لوثر قد لاقى هو في كثير من النفوس التي رحبت بهاجمه تلك (التجارة المقدسة) فطرد (حنا تدل) من وظيفته، ولم يعد هناك أي ميدان لبيع هذه الصكوك.

١) التاريخ الأوروبي الحديث - د / عبد الحميد البطريق ص - ٣٠٣

لاقت آراء لوثر رضا من الكثيرين، والتفسير حوله أتباع متخصصون في ألمانيا، وهم أولئك الساخطون على تصرفات الكنيسة في روما، وتحكم البابا في العباد، وادعائه بأنه واسطة الغفران عند الله.

وفي عام ١٥١٩ وعام ١٥٢٠ عبأً لوثر الرأي العام بسلسلة من الكتابات الدينية التي ضمنها تفسير العقيدة الجديدة، وأوضح أن ادعاءه بأهم أصحاب الكلمة الأخيرة وأهم مختلفون عن عامة الناس مغضّ أدعائه كاذب، وأن على الناس أن يبحثوا عن الحقيقة بأنفسهم في الكتاب المقدس، وفي الوقت نفسه وجه الدعوة إلى أمراة ألمانيا وفرسانها يهيب بهم أن يتزعموا حركة الإصلاح الديني، وبين تلك الدعوة لهم على أساس أن رجال الدين خاضعون للسلطة الرمنية، وإن البابا ليس وحده صاحب الحق في احتكار الكتاب المقدس، وعليهم واجب يجب تأدیته لخدمة الإنسانية، وهو الإشراف على الدين في بلادهم، وأعلن وجوب إنقاص عدد الأديرة، وأنه لا ضرورة للحج إلى روما، ونشر رأيه كذلك بإباحة الزواج لرجال الدين، ووجه أعنف النقد للكرادلة على حياة البذخ والرفاهية التي يتمتعون بها^(٢).

ساعدت مؤلفات لوثر حركته ضد الكنيسة فألف مقالاً عنوانه (رسائل إلى نبلاء الأمة المسلمين الألمان) بشأن تحسين أحوال المسلمين ومقال آخر (النبي البابلي للكنيسة) هاجم فيه كنيسة روما وأسرارها السبعة، ومقال آخر بعنوان (الحرمة الواجبة للمسيحي)^(٣)

ندد لوثر في هذه المقالات بالضرائب البابوية الباهظة على الشعب المسيحي، وحمل لوثر كذلك على المصايح الاقتصادية البابوية، كل هذه الأموال كانت تأتي من الأديرة

١) التاريخ الأوروبي الحديث - د / عبد الحميد البطريق ص - ٩١.

٢) مارتن لوثر والإسلام - د / محمد أبو حطب ص - ٤١ : ٤٣ بتصريف ط - المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٨.

البكالوريوس ودرجة الماجستير من جامعة (باسيل) وحصل على درجة أستاذ في الآداب كما درس اللغة اللاتينية وكتابات الآباء وعادات الكنيسة الأولى كما عرف كتابات ويكلف وهس ومن قبلهما عرف كتابات إرازمس ثم عين راعياً لأبروшибية^(١) (جلاروس) ثم عين قسيساً مرافقاً للجنود السويسريين الذين يحاربون في صفوف القوات البابوية وترامت شهرته في الخطابة إلى مدينة زيورخ وذاع صيته في الأوساط السياسية والاجتماعية فيها ووصل إلى مكانة عالية "كان زونجلي رجل وطني وسياسي، وكانت حركته وطنية أكثر منها دينية، أو قل هي حركة وطنية لبست ثوب الدين والفلسفة"^(٢) وسرعان ما قاد حركة إصلاح ديني أدت إلى انشقاق كنائس بأسرها من الكنائس السويسرية عن الكنيسة الكاثوليكية في روما.

أسباب قيام زونجلي بالإصلاح:

- ١ -رأى زونجلي هلاك مواطنه في حرب ليست لهم ومع ذلك يدفعون حياتهم ثنا رخيصاً للبابا القابع في روما في سبيل الدفاع عن بابا جشع طماع عدم الإيمان وقد أثرت هذه المشاهد في نفسه وملأته بالغبطة والسطخ الشديد فرفع صوته عالياً وبماهراً ضد هذه العادة وبواسطته تركتها كثير من الولايات"^(٣)
- ٢ - انصراف رجال الدين عن دينهم وما يدعوه إليه وتكالبهم على الدنيا وقد شاهد

١) الأبروшибية منطقة اختصاص إحدى الأسقفيات فالنظام الكنسي يعتبر أن البابا هو: رأس الكنيسة ثم يأتي بعده رؤساء الأساقفة الذين يديرون مقاطعات تتكون من عدة أبروшибيات ثم يأتي هؤلاء الأساقفة وكل أسقف يشرف على أبروшибية واحدة فالأبروшибية هي المنطقة التي يتولاها الأسقف ويعتبر أهلها بالنسبة إليه رعيته وهي قي العادة مدينة بما عدة كنائس يديرها كهنة (رعاة) لخدمة أبناء الكنيسة "المسيحية في العصور الوسطى - جاد المنفلوطي ص ٩٢، الموسوعة الميسرة في للأديان والمذاهب- د / مانع بن حماد الحموي

جـ ٢ ص ٩٥١ ط الرابعة ١٤٢٠ هـ. جـ ٢ ص ٩٥١

٢) الإرساليات التبشيرية - د / عبد الجليل شلي ص ١٢٩

٣) مختصر تاريخ الكنيسة - أندره ملر جـ ٢ ص ٣٦٠

طلب البابا من رئيس جماعة سانت أغسطين أن يضطروا مارتن لوثر إلى التقهقر والتراجع عن أفكاره الثورية، ففعلاً نوقشت لوثر في مجمع (هيدلبرج) في مايو ١٥١٨ م ولكن لم يتقهقر مطلقاً عن مبادئه، بل استمر في حركته العدائية للكنيسة في روما، التي رأت أن تقبض عليه ولكن رعاية منتخب سكسونيا (فردرريك) له كان لها أثراً في حمايته. انتهى أمر هذه الكتابات والرسائل بانفصال لوثر عن الكنيسة، وجعلت من المستحيل إصلاح علاقته بالبابا وأحرق لوثر كتاب البابا على ملايين الناس عندما أرسل إليه يدعوه فيها للحضور للكنيسة ولسلطنة البابا دون قيد أو شرط، فأعلن البابا حرامه من رحمة الكنيسة، وأعلن عن مروق لوثر وأتباعه عن العقيدة المسيحية، وأمر بمواصلة إحراق كتبه ومؤلفاته.

هذه أهم آراء مارتن لوثر وجد أن جزءاً من فساد رجال الدين يرجع إلى عدم الزواج، وأن المعن منه لم يكن في المسيحية في عصورها الأولى، فقرر حقهم في الزواج، وتزوج هو فعلاً، مع أنه من رجال الدين وكان زواج لوثر من راهبة، ورأى أن الكنيسة تحافظ لنفسها بحق فهم الإنجيل وذلك من أسباب غلوها وفقدانها الرقيق، فجعل لكل مسيحي مثقف الحق في فهمه، وانتقل لوثر بترجمته إلى الألمانية ليقرأه كل ألماني، وأنكر أن المسيح يحل في بدن من يأكل العشاء الرباني، فقد أنكر استحالة الخبز إلى عظام المسيح المكسورة، وأنكر استحالة الخمر إلى دم المسيح وحلوها في جسم الأكل، واكتفى بكون العشاء الرباني تذكرة لما قام به المسيح من فداء للخلية في زعمهم، وأن يعتقد المسيحي أن المسيح معه يمسكه عند تناول هذا العشاء، هذا كله مع إنكاره حق الكنيسة في الغفران، ذلك الحق الذي كان منه تلك النيران التي لم تستطع الكنيسة إطفاءها.

ثانياً: أولريخ زونجلي:

سويسري الأصل ولد بقرية (فلد هاوس) سنة ١٤٨٤ م وكان أبوه يعمل برعى الأغنام والماشية، ظهرت على زونجلي علامات النبوغ مبكراً ودرس اللاهوت حصل على درجة

وصرح زونجلي بذلك في وجه تسعمائة من أعضاء الكنيسة الكاثوليكية رافضا سلطان البابا مبينا أن جميع تعاليم روما وعاداتها ليست إلا من اختراع الكهنوت وهي متلفة لنفس الناس^(١)

ثانياً: تكسير التماثيل والصور:

حيث كان يرى أن شريعة موسى تحرم صراحة عبادة الصور والأصنام وأنه يجب القضاء على التماثيل التي تملأ الكنائس فهي من آثار الوثنية ولا تمت بصلة للمسيحية، وأن الكتاب المقدس أيضا يقرر أن الصور ممنوعة بكلمة الله وينبغي على المسيحيين عدم صنعها أو إقامتها أو تقديم أي خشوع أو احترام لها^(٢)

وقد نفذ ذلك بصورة عملية، حيث كون هيئة هدم التماثيل وإزالة الصور.

ثالثاً: العشاء الرباني ليس إلا رمزا لل福德اء:

رفض زونجلي رأي الكنيسة الكاثوليكية في العشاء الرباني بأن الخبز واللحم يتحولان إلى جسد المسيح ودمه ويتحولان في جسد الأكل والشارب، وأكد أن ذلك ليس إلا مجرد رمز لل福德اء والتضحية التي قدمها المسيح، وتمسك بكلام المسيح حيث قال (اصنعوا هنا لذكري وقرر أن كلمة (هو) في الجملة (هذا هو جسدي) معناها (يدل على أو يشير إلى) وفي رأي زونجلي يجب أن يفهم النص الذي قاله المسيح هكذا (هذا أي الشيء الذي أقدمه لكم للأكل هو رمز لجسدي مقدم لأجلكم وهذا الذي أعمله الآن يجب أن تعلمه أنتم في المستقبل لذكري)^(٣) فالعشاء الرباني مجرد رمز لموت المسيح وتذكرة فقط.

رابعاً: زواج رجال الدين:

درجت المسيحية على التبلي وأن الزواج ليس ضروريًا وأدى هذا إلى أن العزووية صارت

بنفسه انشغال رئيس الدير الذي كان يعمل به يشغل بالصيد فحاول زونجلي إصلاح هذا الدير لما تولى مهام الوعظ في كنيسته.

٣ - ما رأه من خرافات وأساطير في الأديرة حيث كان متفضلا فيها عبادة الأوثان فكان يوجد في دير بندكت تمثلا في صورة ملاك يحمل لوحة محفور عليها بالخطأ الكبير (ها هنا يمكن الحصول على غفران كامل للخطايا) فكان يتواجد إليه الناس من كل أنحاء البلاد المسيحية وتقدس القربابين^(٤)
 موقف الكنيسة من زونجلي:

قام زونجلي بمحاولات إصلاحية حينما كان واعظا في إينسيدلن قبل أن ينتقل إلى زيروخ فجذب الناس إلى كنيسة الدير حيث كان يكرز مباشرة من الإنجيل^(٥)

وحولهم من عبادة الصور والتماثيل إلى الإيمان بال المسيح وحده ومن الاختراقات البشرية إلى تعاليم الإنجيل وكان ينصحهم دائما على أن يطلبوا غفران الخطايا من يسوع المسيح وليس من غيره والعجيب أن الكنيسة مع ما كان يفعله زونجلي إلا أنها كانت تهادنه فالبابا (ليو العاشر) أرسل مرسوما بتعيينه قسيسا خاصا للكرسى البابوى وذلك أن السلطة البابوية كانت تعتقد أن زونجلي ما زال على ولائه لها، ثم أرادت الكنيسة كسبه إلى جانبها لما كان عليه من تأثير ونفوذ في سويسرا.

الإصلاحات التي قام بها زونجلي:

أولاً: الكتاب المقدس هو الدستور الوحيد:

فالمعتمد عند زونجلي هو الكتاب المقدس وحده، وأن جميع الحجج والبراهين يجب أن تستمد من مصدر واحد هو الكتاب المقدس، لأنه هو الدستور الوحيد للدين المسيحي،

(١) مختصر تاريخ الكنيسة - أنطرو ملر جـ ٢ صـ ٤٠٢ بتصريف.

(٢) المرجع السابق جـ ٢ صـ ٤٠٠ بتصريف.

(٣) تاريخ الكنيسة - جون لوربر جـ ٤ صـ ١٧٣.

(٤) المرجع السابق جـ ٢ صـ ٣٦٢.

(٥) تاريخ الكنيسة - جون لوربر جـ ٤ صـ ١٦٥.

كلفه بها قداسة البابا، وقد حدث ما يشابه ذلك في ألمانيا مع لوثر حيث جاء الراهب (تزل) إلى ألمانيا وقام بنفس المهمة بأمر من البابا، فاستنكر زونجلي هذا العمل وعليه فقد أخذ (زونجلي) موقف ضد مزاعم بائع صكوك الغفران (سانسون) وضد أخلاقه الشخصية الأمر الذي قضى على مهمة (سانسون) بالفشل مما دفع به إلى الرحيل بعد أن كلف (زونجلي) مع آخرين بطرده من الكنائس التي يتردد عليها" ^(١)

وقتل زونجلي على يد أنصار البابوية في الحروب التي دارت بين الكاثوليك وبين رجال الإصلاح ولم يصمد رجال الإصلاح أمام الأعداد الغفيرة للكاثوليك ومات رئيسهم صاحب الفكر الإصلاحي الذي كرس حياته من أجله ولم يكتف المتعصبون من الكاثوليك بقتله بل طالبوا أن يعامل معاملة الخونة فعقدوا مجلساً على سبيل السخرية واستحضرموا الميت للمثول أمامهم وأصدروا قرارهم بالإدانة بتهمة الخيانة والهرطقة وحكموا عليه بالحرق حتى يصير رماداً فقسم جسده إلى أربعة أجزاء ثم أحرقوه ومزج الرماد برماد خنازير وذرى مع الرياح" ^(٢)

هكذا كان زونجلي يهاجم علناً الرهبانية والمطهر والتسلل بالقديسين، وأعلن أن دفع ضرائب العشر للكنيسة يجب أن يكون بمحض الاختيار كما جاء في الكتاب المقدس. ورجال الأسقف الذي يتبعه أن يسحب هذه العبارة، ولكنه أصر عليها وأيده مجلس المقاطعة، بأن أصدر أمراً لكل القساوسة المعينين في نطاق اختصاصه، أن تقتصر عظامهم على ما وجدوه في الكتاب المقدس... أما المطهر فهو حرافة... وصكوك الغفران مهنة مرحبة لمن ابتدعوها وليس في الكتاب المقدس إشارة عنها، والاعتراف السري لا ضرورة له، وليس في وسع قسيس أن يغفر لأحد خططيته فالله وحده هو الغفور، وليس العشاء

(١) تاريخ الكنيسة - جون لوربر جـ ٤ ص ١٦٤.

(٢) مختصر تاريخ الكنيسة - أندره ملر جـ ٢ ص ٤٦٩، المسيحية في عصر الإصلاح - د/ عزت زكي ص ١٠٩ طـ دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية ١٩٨٠ مـ.

نظاماً مفروضاً على الرهبان والقسيسين في المذهب الكاثوليكي" ^(١)
ولكن رجال الدين لم يتزموا هذا النظام بل كان رجال الإكليلوس يعيش الواحد منهم كما لو كان متزوجاً وذلك تحت سمع وبصر السلطات الأكليركية وتغض الطرف عن هذا السلوك الشائن في حين تعاقب على الزواج "فكان إلحاح زونجلي على زواج رجال الإكليلوس ليس مجرد تحرير الناس من كبت غير طبيعي بقدر ما كان يهدف بذلك إلى الشفاء من شر اجتماعي خطير داخل الكنيسة ومنع الممارسات غير الشرعية ونادي بضرورة زواج الكهنة وتزوج هو من أرمدة وأعلن هذا الزواج" ^(٢)

خامسًا: إلغاء القداس:

اعتبر زونجلي العشاء الرباني رمزاً للقداء فقط ولم يقم بإلغاء القداس إلا بعد أن هياً لذلك بأن قرر "عدم إرغام أي قسيس بتلاوته أو علماني باستماعه وبذلك فقد مكانته شيئاً فشيئاً وأصبح تقريباً في حيز النسيان والإهمال حتى صار من رأي الجميع أن الوقت قد حان لإلغائه كلية" ^(٣)

فانتهى بذلك هذا الطقس الذي مارسه المسيحيون قرونًا طويلة وجعل زونجلي مكانه شكلاً جديداً" وهو أنه أكل مع جمهور غير مختمر وشربوا من كؤوس ملائى بالنبيذ تذكاراً للعشاء (الرب) الأخير مع التلاميذ" ^(٤)

زونجلي وصكوك الغفران:

أثناء وجود زونجلي في (إينسيدلن) جاء أحد الرهبان واسمه (سانسون) الذي عهد إليه البابا (ليو العاشر) ببيع صكوك الغفران، وراح ينفذ هذه المهمة، ويقوم بهذه التجارة المشينة التي

(١) المسيحية - د/ أحمد شلي ص ٢٢٧.

(٢) تاريخ الكنيسة - جون لوربر جـ ٤ ص ١٦٩.

(٣) مختصر تاريخ الكنيسة - أندره ملر جـ ٢ ص ٤٢٣.

(٤) المراجع السابق جـ ٢ ص ٤٢٤.

ورآها وكأنها هيكل للأوثان أو باب للجحيم، فاستقال من منصبه وتوجه لدراسة الحقوق إلا أنه لم يقتصر بدراسة الحقوق لأنه رأى أن ما يدرس من القانون لن يوضع إلا لحماية الكنيسة الرومانية إذ فيه ضرورة عقاب الخارجين بالحرق لكونهم هراطقة فترك بذلك دراسة القانون بعد أن استمر فيه ثمانية عشر شهرا" (١)

ثم درس اللغة اليونانية والعبرية والسريانية يقصد دراسة العهد القديم.

لاحت الفرصة لكفلن لإعلان مبادئه عندما ألقى خطاباً في يوم القديسين فلم يتكلم عن المناسبة الأصلية وإنما ركز كلامه عن نعمة الله هي الأمل الوحيد في خلاص الإنسان وغفران الخطايا بواسطة ذبيحة المسيح الثمينة" (٢)

وتوبيل هذا الخطاب بالاعتراض واعتبره الحضور خيانة ضد القديسين وخياناً للأسس التي قامت عليها الكنيسة الرومانية وصدر الأمر بالقبض عليه إلا أنه هرب واختبأ في بيت قسيس له مكتبة ضخمة وضعها تحت تصرف كلفن" (٣)

بدأ كلفن يواصل نشر تعاليمه فألف كتاب (مبادئ الديانة المسيحية) الذي ترجمه إلى الفرنسية وقد تضمن مبادئ اتفق فيها مع لوثر، وأحدث ضجة كبيرة وانتشر في كل مكان وأصبح كلفن القائد المعترف به لحركة الإصلاح في فرنسا أما لوثر فقد كان بعيداً عن فرنسا، أخذ كلفن ينظم مبادئ البروتستانتية ويكمّل ما فيها من نقص.

وعمل بكل همة على إزالة أسباب الفساد واستمر في انتقاد الكنيسة والحكومة على حد سواء ثم اضطر إلى الفرار بعقيدته إلى جنيف، وأصبحت كنيسة جنيف هي المركز الرئيسي لقضية الإصلاح واستقر بها وانشرت مبادئه بسبب إنشاء كلية العلوم المقدسة والعلوم الدينية التي كان يؤمها الطلبة في كل مكان في أوروبا والتي أقيمت بمذورة كلفن وبذلك

(١) المرجع السابق ص ١٦ بتصرف

(٢) مختصر تاريخ الكنيسة - أندرو ملر ج ٢ ص ٥٩١

(٣) حديث مع جون كلفن -ليب مشرقي ص ٢٢

الرباني أكلاً فعلياً لجسد المسيح، ولكنه رمز فقط. فكانت أهم مبادئ زونجلي التي نادى بها أن الكتاب المقدس يجب أن يكون هو القائد والمعلم، وألح على زواج الإكليروس، وهاجم عزوبة رجال الدين، وصكوك الغفران، وأكّد على أنه لا أساس للسلطة الروحية في الكتاب المقدس وفي تعاليم المسيح، وأنكر عقيدة المطهر وقال إنها خرافية.

ثالثاً: جون كلفن:

فهو فرنسي الأصل ولد سنة ١٥٠٩ م في بلدة نوبون في إحدى المقاطعات الفرنسية وكان أبوه يعمل سكرتيراً للأسقف" (٤)

تعلم كلفن مع أبناء إحدى العائلات النبيلة وعندما بلغ الرابعة عشرة من عمره سافر إلى باريس، ودرس على يد أحد الأساتذة المشهورين من المعتقدين لمبادئ الإصلاح وبعد أن أتم دراسته انتقل إلى كلية مونتج سنة ١٥٢٦ م الخاصة بتعليم الكنائس وقد حصل بعد انتهاءه من ذلك النوع من التعليم على وظيفة قسيس بإحدى الكنائس رغم صغر سنّه وأصبح عضواً في الإكليروس" (٥)

وبذلك حصل له والده على وظيفة كنسية منذ نعومة أظفاره أمدته بدخل سنوي.

انفصال كلفن عن الكنيسة ونشر مبادئه:

بدأ كلفن التفكير في مبادئ الإصلاح عندما قرأ الكتاب المقدس على إثر نصيحة من ابن عمه الذي كان من تشغله حركة الإصلاح، ودرس آراء المصلحين الألمان وقرأ كتاباتهم وصار يميل إلى المبادئ الجديدة واعتنق المذهب اللوثرى ثم أخذ كلفن ينظر إلى الكنيسة الرومانية بخيبة بعد أن كان مغرماً بالكنيسة وأنها باب السماء وعزم على الانفصال عنها

(١) حديث مع جون كلفن -ليب مشرقي ص ١٤ .

(٢) المرجع السابق ص ١٥ .

تطویر آراء مَن سبقوه إلى نتائج منطقية، والتعبير عن هذه النتائج ببلاغة "(١)"

انتشرت مبادئ الإصلاح في كافة الأحياء.

بين كلفن ولوثر:

كان كلفن الرعيم المعترض للإصلاح في فرنسا وقد تأثر بآراء لوثر دون أن يقابل شخصياً، لكن ثمة فرق بين الرجلين "يرى كلفن أن الكنيسة يجب أن تحكم نفسها بنفسها، وعلى الحاكم المدني مساعدتها ومعاونتها وحمايتها، وذلك ليكون السلطان الديني غير خاضع لحكم الحكام، ويرى أن المسيح لا يحضر بشخصه ولا بروحه في العشاء الرباني ويعتبر تناول العناصر المادية رمز للإيمان وأن العشاء الرباني يشير إلى مجيء المسيح كما يشير إلى موته فيكون تذكاراً للماضي والمستقبل فالعبرة في العشاء الرباني للذكرى، لا حضور المسيح مادياً أو روحياً، والدولة والكنيسة مقدستان وقد خلقهما الله، لكنه يعمل في انسجام كالروح والجسد، مجتمع مسيحي واحد: وعلى الكنيسة أن تضع القواعد، التي تنظم كل التفاصيل الخاصة بالعقيدة والعبادة والأخلاق، وعلى الدولة أن تدعم هذه القواعد باعتبارها ذراع الكنيسة الطبيعي... وأن الكلمة الطاهرة هي الوحيدة التي يجب أن يتعلّمها ويتقاها الناس، بينما الحكومة المثالبة هي حكومة رجال الدين ويجب أن تعرف بالكنيسة التي تؤمن بالإصلاح الديني باعتبارها صوت الله "(٢)"

تفوق كلفن على لوثر وزوجللي بانتشار آرائه وذيوع صيته وتأثيره القوي لدرجة أنه لقب بـ (المصلح الدولي الوحيد) فإن كان لوثر هو الذي قام بالمواجهة الكبرى مع كنيسة روما إلا أن كلفن هو الذي نظم وعزز جهد حركة الإصلاح وعمل على انتشارها "(٣)" يقول ول ديورانت: "لم تكن عبرية كلفن تكمن في أنه يأتي بأفكار جديدة، ولكن في

(١) محاضرات في النصرانية - محمد أبو زهرة ص ١٦٧، قصة الحضارة - ول ديورانت ج ٢٣ ص ٤١٣

(٢) تاريخ الكنيسة - جون لورير ج ٤ ص ٢٦٤

(٣) قصة الحضارة - ول ديورانت ج ٢٣ ص ٤١٤

الفصل الرابع

مبادئ حركة الإصلاح البروتستانتي

لقد ذاعت الآراء الإصلاحية، وانتشرت في أرجاء أوروبا، وكان لقادة الإصلاح أثر في فضح الكنيسة وكشف عيوب القائمين عليها، إلا أن الكنيسة لم تتأثر كثيراً هؤلاء المصلحين، فما استطاعوا إصلاح حالتها، لأنها كانت تصدر قرارات الحberman لكل من تسلّل له نفسه المساس بالكنيسة ورجالها، ولكن الحركة الجديدة (حركة الإصلاح) أنشأت كنائس لأتباعها سميت بالكنائس البروتستانتية، وهذه الكنائس لم تعرف لكنيسة روما بأي سلطان، كما سميت الكنائس البروتستانتية بالكنائس الإنجيلية، وذلك لأنها لا تخضع إلا لحكم الكتاب المقدس، فهو "يقيد بأحكامه رجال الدين أمام رجال الشعب، وجميعهم مسئول أمام ذلك الكتاب، وليس لرئيس الكنيسة خلاقة تجعل كلامه مقدساً متساوياً لأحكام الكتاب المقدس في الرتبة والاعتبار" (١).

وقد تبنت حركة الإصلاح البروتستانتي عدة مبادئ ميزتها عن الكنيسة الكاثوليكية وأهم هذه المبادئ ما يلي:

١ - جعل الخضوع التام الواجب على المسيحي لنصوص الكتاب المقدس وحدها: وجعله الحكم وحده الذي لا ترد حكمته ولا ترفض أوامرها، وقياس كل أوامر الكنيسة القديمة وقرارات المحاجم على ما نص عليه في ذلك الكتاب بما وافقه قبل على أن الكتاب قد ورد به وما خالفه رفض ولو كان صدر عن أكثر رجال الكنيسة شأنًا في الماضي أو الحاضر (٢).

ومن حق كل مسيحي قادر أن يقرأ الكتاب المقدس ويفسره بنفسه، وقد التزم رجال

الإصلاح بذلك، وطبقوه في كل أحواهم، كذلك ترجمة الكتاب المقدس للغات المختلفة حتى يقرأه المسيحيون على اختلاف لغاتهم، وقام مارتن لوثر بترجمته إلى اللغة الألمانية.

٢ - عدم الرياسة في الدين:

ليس للكنائس البروتستانتية من يترأس عليها رياضة عامة، بل لكل كنيسة رياضة خاصة بها، والرياسة الكنيسية التي تستمد الخلافة من أحد الحواريين أو من المسيح نفسه لا وجود لها عندهم، بل إن الكنيسة في مكان ليس لها إلا سلطان الوعظ والإرشاد، والقيام على تأدية الفروض والتوكاليف الدينية، وبيان ذلك الدين لمن لا يستطيع معرفته من تلقاء نفسه، ولم يكن عنده من الثقافة ما يمكنه من ذلك (١).

٣ - ليس لرجل الدين الغفران:

إذا كانت الكنيسة ليس لها سلطان إلا البيان لمن لا يستطيع بيانه، والإرشاد لمن لا يستطيع معرفة أوامر الدين من تلقاء نفسه فليس لها سلطان في محى الذنب أو ستره، أو تلقي الاعتراف بالذنوب ومسحها، سواء كانت تلك هي المسحة الأخيرة عند الاحضار، أم كانت قبل ذلك فكل ذلك ليس لها فيه سلطان، لأنه من عمل الديان "لكن الكنيسة كانت تعطي نفسها الحق في أن تمحو الذنوب والخطايا وتسقط العقوبات والقصاصات في الماضي والحاضر والمستقبل وتزعم أنها تملك أن تفتح أبواب الفردوس الروحي وتغلق أبواب العذاب، ولعل صك الغفران له صور لا نعرفها، منها الشفهي والفردي والجماعي" (٢)

وصكوك الغفران وحق الكنيسة فيه كانت الثواب الذي اندلعت منه الثورة على الكنيسة، وبعها تقضي عيوبها وتتبع نفائصها "فالكنيسة قد غالت فيما زعمته لنفسها في ذلك من

(١) المرجع السابق ص ١٦٩.

(٢) الخلاص من الخطبية - محمد عبد الرحمن عوض ص ٤٥.

على القلب والعبادة. كان هذان المبدأن سبباً في أن رفض أولئك المسيحيون الصلاة بلغة غير مفهومة للمتعبد لأن الصلاة دعاء من العابد للمعبود وانصراف القلب إليه والقيام بالحضور الكامل له والنطق بما يدل على الخضوع والالتجاء إلى المعبود، فوجب أن تكون الصلاة باللغة التي يفهمها العابد ليردد معانيها ويقصد مراميها وقد كانت صلاة القسيس بلغة لا يفهمها المصلون مقبولة لدى الكاثوليك لأن أساس ذلك أن عبادة القسيس عبادة لمن هم تحت سلطته وسلطانه.

٦- إنكار الرهبنة:

أنكرت حركة الإصلاح البروتستانتي لزوم الرهبنة التي يأخذ رجال الدين أنفسهم بها ويعتبرونها شريعة لازمة ويفقد رجال الدين الصفة التي تكون له وهي الكهنوتية إذ تخلى عن الرهبنة.

ولقد رأى المصلحون أن ذلك يؤدي إلى حظر وكتب للجسد الإنساني وتعذيب له من غير ضرورة. وإنه لا نص من الكتب قد يفيدها وجديدها يفيد ذلك.

ورأوا أيضاً ما أدى إليه ذلك الكبت من انفجار غريبة الإنسان رجل الدين فانطلق يكرع اللذة من الحرام بعد أن حرم على نفسه الحلال وطفق يغترف الآثام ويهوي في المفاسد. وترك المنهل العذب الذي حلته الشرائع ويفتق مع ناموس الاجتماع الإنساني، فأنكر رجال الإصلاح الرهبنة، وأباحوا الزواج لرجال الكنيسة، وطبق مارتن لوثر ذلك واقعياً فبدأ بنفسه وتزوج من راهبة وكذلك فعل زوجلي وكلفن.

٧- عدم اتخاذ الصور والتماثيل:

منع البروتستانت اتخاذ الصور والتماثيل في الكنائس والسجود لها لأن ذلك أقرب إلى الوثنية، وقالوا إن ذلك مما نهى عنه في التوراة، ولا شك كما يقول الإمام أبو زهرة في كتابه (محاضرات في النصرانية): "إن ما نهى عنه التوراة يجب الأخذ به ما دام الجميع يؤمنون بالتوراة وكتب العهد الجديد وما دام لم يرد عن المسيح وعن الرسل ما يبطل ما

حق والأساس في رفض الكنيسة في هذا كل نفس لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت"^(١). وكما أن ذلك الأساس أدى إلى سلب الكنيسة ما زعمته لنفسها من حق الغفران أدى إلى أمر آخر وهو منع الصلاة لأجل الموتى واعتبار أن ذلك لا يفيدهم لأنه ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سيحاسب عليه إن خيراً فخير وإن شرًا فشر، وأدى أيضاً إلى أن طلب شفاعة القديس لا قيمة له، لأنه لا يفيد عمل الشخص من صالح إلى صالح، وفي الجملة فإنهم اعتبروا غفران الذنوب يرجع إلى عمل الشخص، وعفو الإله وتوبة العاصي وندمه على ما فات، ولو مه نفسه على ما كان، وكل قول يجعل غفران الذنب أساسه غير ذلك رفضه ولم يلتفتوا إليه.

٤- رأيهم في العشاء الرباني:

إذا كان الكاثوليك يرون أن المسيحي عندما يأكل الخبز، ويشرب الخمر في عيد الفصح يتحول ذلك إلى جسد المسيح ودمه، فإن من مبادئ البروتستانت أن العشاء الرباني ما هو إلا تذكرة فداء المسيح للخطيئة التي أرتكبها آدم، وتحملت الخلقة من بعده وزرها، وتذكرة جبيه ليدين الناس فهو تذكرة للماضي والمستقبل كما جاء في بعض الرسائل، وهم ينكرون أن يتحول الخبز إلى جسد المسيح والخمر إلى دمه" والكنيسة أصرت على ذلك إصراراً، الأمر الذي لم يستسغه مارتن لوثر وأشياعه وخلفاؤه من بعده، وانتهت أمرهم إلى أن رفضوا ذلك التحول الذي تفرضه الكنيسة وتلتزم به، وإن كان بعيداً عن المعروف المأثور بالفداء وتذكرة للمجيء وفي ذلك عظة واستبصار"^(٢)

٥- عدم الصلاة بلغة غير مفهومة:

لقد كان ذلك المبدأ الذي يجعل الإنسان يدين بعمله وحده ومبدأ أن لا سلطان للكنيسة

١) محاضرات في النصرانية - محمد أبو زهرة ص ١٧٠.

٢) محاضرات في النصرانية - محمد أبو زهرة ص ١٧١.

عهد قسطنطين، وما كان للبيئة والتقاليد والتماثيل اليونانية من أثر جعل الشعب يحول الآثار، والصور، والتماثيل المقدسة إلى معبدات، يسجد الناس لها، ويقبلوها، ويوقدون الشموع، ويحرقون البخور أمامها، ويتوجونها بالأزهار... وما إن انتشر الإسلام، وعم أرجاء المعمورة، وخاصة في القرن الثامن الميلادي، وعرفت تعاليمه لغير أهله - وما فيه من النهي عن اتخاذ الصور والتماثيل فضلاً عن تقديسها - حتى بدأ بعض النصفين من المسيحيين وأرباب السلطان في نبذ هذه البدعة والعمل على إزالتها، من هؤلاء: الإمبراطور قسطنطين الخامس (741 - 775 م) حيث جمع هذا الإمبراطور مجلساً من أساقفة الشرق في القسطنطينية سنة (754 م) قرر فيه بصفة قاطعة: تحريم اتخاذ الصور والتماثيل في العبادة، ووصفها بأنها عمل مقوت، وحرم طلب الشفاعة من العذراء، وأمر بأن يمحى أو يدمر كل ما في الكنائس من صور وتماثيل، وكذلك أحفاده من بعده ساروا على نفس نهجه، حتى كان عام (787 م) حيث دعت الإمبراطورة (إيريني) - التي كانت معاصرة هارون الرشيد - رجال الدين في العالم المسيحي إلى عقد جمع عام للبحث في مسألة الصور والتماثيل، واتخاذ قرار حاسم بشأنها. فاجتمع في مدينة نيقية عام (787 م) حوالي (٣٧٧) أسفقاً، وأصدروا قراراً بتعظيم صور المسيح وأمه والقديسين لا بعبادتها، وجاء في قرار هذا الجمع (نيقية الثاني): نحكم بأن توضع الصور ليس في الكنائس والأبنية المقدسة والملابس الكهنوتية فقط، بل في البيوت وعلى الجدران في الطرق، لأننا إن أطينا مشاهدة ربنا يسوع المسيح والدته العذراء والرسل، وسائر القديسين في صورهم شعرنا بالليل الشديد إلى التفكير فيهم، والتكرم لهم، فيجب أن تودي التحية والإكرام لهذه الصور" (١)

واستمر الحال هكذا، حتى قامت حركة الإصلاح البروتستانتي والتي كان من مبادئها منع

(١) قصة الحضارة - ول دبورانت جـ ١٤ صـ ٤٣٢: ٤٣٣ بتصريف اختصار.

" جاء في التوراة " (١)

فمن بين الشعائر الوثنية التي اقتبسها المسيحيون: شعيرة تقديس وعبادة الصور والتماثيل، مع أن الواقع يقرر أنه ليس في العهد القديم ما يبرر للنصارى فعلتهم هذه، بل على العكس من هذا، لقد نهى العهد القديم في صراحة تامة عن اتخاذ الصور، ونحت التماثيل، وتوعّد بالهلاك والإيادة من يخالف ذلك، من ذلك ما جاء في سفر التثنية: (لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً، ولا صورة ما مما في السماء من فوق، وما في الأرض من أسفل، وما في الماء من تحت الأرض، لا تسجد لهن، ولا تعبدهن لأنّي أنا الرب إلهك غير...) (٢)
وفي سفر اللاويين: (لَا تَصْنَعُوا لَكُمْ أَصْنَاماً، وَلَا تُقْيِمُوا لَكُمْ تَمَاثِيلَ مَنْحُوتَةً، أَوْ أَلْصَابَأَ مُقَدَّسَةً، وَلَا تُرْفَعُوا حَجَراً مُصَوَّرًا فِي أَرْضِكُمْ لِتَسْجُدُوا لَهُ) (٣)

هذه بعض نصوص التوراة التي وردت في النهي عن عمل الصور والتماثيل وعن عبادتها، والسجود لها. ولا شك أن التوراة تعتبر كتاباً مقدساً لدى المسيحيين، بالإضافة إلى أن العهد الجديد حال من ذلك أيضاً، لكن يأتي النصارى إلا مخالفة شريعة الله، فيدخلون شعيرة تقديس الصور والتماثيل - وهي شعيرة وثنية - ضمن شعائرهم، شأنها في ذلك شأن كافة الشعائر والبدع التي اقتبسوها عن الوثنين

وبالطبع التاريخي لهذه الشعيرة نجد أنها لم تكن في أول أمرها كما هي عليه الآن، بل قد كانت نشأة في البداية محدودة النطاق، ثم ما لبثت أن غنت تدريجياً، وانتشرت انتشاراً واسعاً، ثم أصبحت من ضمن شعائر النصرانية، وذلك عن طريق مجتمعهم، وإيضاً حاضراً في ذلك يقول المؤرخ المسيحي ول دبورانت في كتابه (قصة الحضارة): " كانت الكنيسة أول أمرها تكره الصور والتماثيل، وتعدها بقايا من الوثنية... ولكن انتصار المسيحية في

(١) محاضرات في النصرانية - محمد أبو زهرة صـ ١٧١، ١٧٢.

(٢) سفر التثنية - إصلاح ٥ فقرة ٨.

(٣) سفر اللاويين - إصلاح ٢٦ فقرة ١.

الفصل الخامس

مدى تأثر حركة الإصلاح البروتستانتي بالإسلام

أولاً: صلة حركة الإصلاح البروتستانتي بالإسلام:

يرى بعض الباحثين^(١) أن حركة الإصلاح التي قام بها مارتن لوثر ومن سبقه من رجال الكنيسة لم تكن نتيجة سوء الأوضاع الداخلية، وفساد الكنيسة الاجتماعي والخلقي فحسب، بل هناك سبب آخر، وهذا السبب الآخر " هو انتشار المعرفة بالإسلام عقيدة وفكرةً في الغرب، فقد كان الإسلام هو الحرك للعقل الأوروبي بعد أن أيقظته من سبات دام طوال عصور الظلم والعصور الوسطى...."

وتأتي الصلة بين الإسلام والمسيحية حين خرج الإسلام ليواجه النصرانية فاتجه المسلمون إلى الأندلس فاستوطنوها، وأقاموا مملكتهم على أرضها قرونًا عدة، دخل الإسلام خلالها إلى قلب أوروبا، وظل المسلمون يصولون ويجولون في أوروبا حتى القرن العاشر الميلادي، ولم يمض القليل من الوقت حتى جاء الأوروبيون أنفسهم إلى ديار الإسلام من خلال حملات الصليبية لتبعد مرحلة أخرى من مراحل الاتصال بين الإسلام والنصرانية الغربية هذا الاتصال وإن كان عسكرياً بالدرجة الأولى إلا أن الأمر في الحقيقة أعمق من هذا، فمن خلال هذا الاتصال ترك الإسلام أثراً قوياً في أوروبا، تمثل في الحركات الإصلاحية، وإن كان هذا الأمر يتغاضى الغرب عنه، فالإسلام كان صاحب فضل كبير في إصلاح النصرانية الغربية وظهور حركات الإصلاح الديني هناك، ويؤكد صاحب كتاب مختصر تاريخ الكنيسة هذا الأمر فيقول: " كان الإمبراطور (ليو الثالث القرن السابع الميلادي)

اتخاذ الصور والتمايل في الكنائس والسجود لها " وكانت وجهة نظر البروتستان خبر عبادة القديسين وعبادة مريم على أنها شكل من أشكال الوثنية، وآمنوا أنه ينبغي تطهير علاقة دققة مع الله من خلال كلمة الكتاب المقدس بدلاً من أن يكون ذلك من خلال نصب صور المسيح ومريم والقديسين، أو حتى من خلال الرموز"^(٢) وأزالت الإصلاحات الكاثوليكية أيضاً عبادة القديسين، وأصبح ينظر إليهم على أنه شخصيات بطلية ومُثل علياً للأخلاق والفضائل وليس ك أصحاب أو جالبين للنفع، لكن الكنيسة الكاثوليكية كانت متأية رافضة للتخلص عن السلطة التي تبنته خلال قرون.... وكان الكاثوليك على غير استعداد للتخلص والاستغناء عن الطقوس وقداسات القربان فرفض البروتستان ذلك رفضاً كلياً.

^(١) الشيخ / محمد عبده في رسالة التوحيد الجزء الثالث تحت عنوان (الإصلاح الفكري والتربوي والإلهيات)، الشيخ / محمد أبو زهرة في كتابه (محاضرات في النصرانية)، الشيخ / أمين الخولي في كتابه (صلة الإسلام بإصلاح المسيحية).

^(٢) الجانب المظلم في التاريخ المسيحي - هلين إيلميري ص ١١٢ .

في المسيحية، ويقول عنه صاحب كتاب مختصر تاريخ الكنيسة: "أشهر قادة الفكر في القرن الثالث عشر، وخير مثال للرجل اللاهوت، هذا الرجل الذي لا تزال مؤلفاته مرجحاً هاماً ومميزاً في الكنيسة الكاثوليكية والبروتستانتية ويقول عنه غوستاف لوبيون في كتابه (تاريخ العرب): إنه مدين لابن رشد في كل علمه، وإنه متأثر بالإمام أبي حامد الغزالي، ولا عجب فقد كان على صلة القرابة بأسرة الإمبراطور فريديريك الذي كان عاشقاً للثقافة العربية، وقام هو وأسرته بترجمة الكثير من العلوم العربية إلى اللاتينية" (١)

وهناك رجل آخر من قاموا بدور مؤثر في إصلاح النصرانية وهو (روجر ييكون) (٢) الذي كان في طليعة الإصلاحيين ويوصف بأنه: "كاتب عبقرى شهير ذو فكر ثاقب وبصيرة نافذة وكان له فهم واضح لمجريات الأمور في معاهد العلم وفي الكنيسة، ولم يكن ييكون ينقل للغرب سوى ما تأثر به من الحضارة الإسلامية، وهو القائل: (إن الفلسفة مأخوذة عن العرب، فلا تفهم كما يجب، إلا إذا عرفت اللغة العربية) وكان ييكون يلوم القدس توما الإكويبي لأنّه تعلم الفلسفة الإسلامية من المترجمات وليس من الأصل" (٣) هذا الأثر البالغ الذي أحدثه الإسلام على النصرانية لا تزال الكنيسة تكرره، وتحاول إخفاءه وطمس معالمه، إنّ تأثير المسلمين العرب في حضارة العصور الوسطى كان أجمل شأنًا مما هو معروف الآن.

المشرقون - نجيب العقيقي جـ ١ صـ ١١٧، ١١٨ طـ دار المعرفة.

(١) تاريخ العرب - غوستاف لوبيون صـ ٦١٨.

(٢) روger ييكون راهب فرنسيسكاني درس في كل من أكسفورد وباريس، ويمتاز بشعوره القوي بأهمية التجربة وضرورتها وأكثر ما نعى على أهل عصره وبخاصة أساتذة باريس عدم عنايتهم بالطريقة التجريبية، وصرح بأن هذا التقصير سبب جهل المثقفين بجميع أسرار العلم تقريباً "تاريخ الفلسفة الأولى في العصر الوسيط" - يوسف كرم صـ ١٥٣ - ١٦٠.

(٣)تراث الإسلام - الفريد هيوم صـ ٢٤٤.

(١) يمتلك الشجاعة الكافية فأخذ على عاتقه تطهير الكنيسة من أصنامها المقوية متحملًا المشقات الكثيرة في سبيل هذا، ويصمت التاريخ عن ذكر البواعث التي حركت الإمبراطور (ليو) لهذا العمل، ولكننا نعتقد أنّ ظهور الإسلام قد أثر على الإمبراطور تأثيراً كبيراً، فضلاً عن ذلك كان الاعتقاد سائداً عند المسيحيين في الشرق أنّ الفتوحات الإسلامية كانت تأدinya من الله على ازدياد الوثنية داخل الكنيسة" (٤)

وعندما أخذ يذكر طلائع الإصلاح قبل مارتن لوثر، كان أثر الإسلام واضحاً وقوياً ولم يجرأ الرجل على حجمه " كان البابا سلفستر الثاني الذي جلس على كرسى بطرس الرسول في فجر القرن الحادي عشر وهو حلقة الوصل بين حكمة العرب وجهل الرومان وتسلیمهم الأعمى، فقد تعلم في المدارس الإسلامية وفي مدينة قرطبة، حيث استقى علوماً نافعة... وقد خطى هذا البابا خطوات تجاه الإصلاح نابعة من تأثيره بالإسلام وثقافته به، ولم يكن دور سلفستر الثاني ثانوياً في الإصلاح، فهو لا يزال أعظم من تصدى لفساد الكنيسة لاسيما فساد الأساقفة" (٥)

ومن الشخصيات التي كانت في مقدمة طابور الإصلاح الكنسي (توما الإكويبي ١٢٢٥ - ١٢٧٤) (٦) الذي يلقبه الغرب بالقديس والمعلم الملائكي، وهو أحد طلائع الإصلاح

(١) ليو الثالث ٦٨٥ - ٧٤١، إمبراطور روماني على الإمبراطورية الرومانية الشرقية في الفترة من ٧١٧ - ٧٤١

(٢) ومن أشهر أعماله تحطيم الصور والتمايل داخل الكنائس وتحريم تصوير الشخصيات الدينية المقدسة "قصة الحضارة - ول دبورانت جـ ٤ صـ ٨٣

(٣) مختصر تاريخ الكنيسة - أندره ملر صـ ٢١٢.

(٤) المرجع السابق صـ ٢٣٦.

(٥) ألماني، من طلائع المشرقيين، وتعلم في دير مونتي كاسينو للرهبان ال Benedictines، ثم انضم إلى الرهبان الدومينيكين، وتعلم على يد الكبير، وأحرز لقب أستاذ في اللاهوت، وحاضر في البلاط البابوي عشرين عاماً، توفي قاصداً ليون لحضور محاجمه، وكان قد أعلن قدسياً بعد أن أقسم بالغزوح من الدين لاهتمامه بالفلسفة ودفاعه عن أرسطو وابن رشد، ومن آثاره: خلاصة المنبه الكاثوليكي ضد الوثنين" -

وخلع السلطان الطاغي الذي فرضه البابا ورجاله على الناس باسم الدين، ولكن محاولاتهم كانت كالرقة في الثوب الخلق بسبب رفضهم الدخول في الإسلام، وسعفهم إلى الإصلاح بغير عدته الحقيقة التي تؤدي إليه...”^(١)

فكان من آثار الحضارة الإسلامية في نفوس مثقفي أوروبا، تلك البساطة التي رأوها في عبادات الإسلام، التي يقابلها في التعبد الكنسي طقوس معقدة لا يقبلها عقل، ولا يحس بها خاطر، فطالب المصلحون بإلغاء الوساطة بين العبد وربه، وإلغاء صكوك الغفران، وأنكروا العشاء الريابي، وبذلك يظهر أن هذه الحركة تأثرت بامتداد التعاليم الإسلامية، التي ليس فيها خرافية الاعتراف والغفران أمام أحد من الناس، لكن العصاة يتوبون إلى الله ويستغفرون له دون أن يكون بينهم وبينه وسطاء، وهو وحده الذي إن شاء غفر الذنوب جميعا.

وقد كتب بعض الباحثين^(٢) عن حركة الإصلاح وصلتها بالإسلام، وتوصلا إلى أن من أسباب قيام (مارتن لوثر) بحركة الإصلاح دراسته للفلسفه الإسلامية وفلسفه العصور الوسطى في جامعة فتيرج سنة ١٥٠٨م، وأن هذه الدراسة كان لها أثراً في تساقط كثير من العناصر الوثنية التي شابت النصرانية عندما اتخذت البروتستانتية شكلها المرسوم على يد مارتن لوثر الذي كان موجهاً ثورته على النظام الكاثوليكي وطقوسيه، كذلك كان (زونيجلي) متأثراً بتعاليم الإسلام هذه - محاربة وتحطيم التماطل والصور - عن طريق

وربما يعجب الإنسان لأول وهلة حين يعرف أن (حركة الإصلاح الديني) هذه كانت نابعة من مؤثرات إسلامية، ولكن العجب يزول حين يدرك الإنسان أن أوروبا وهي تقيس بعض جزئيات من الحياة الإسلامية كانت ترفض الإسلام ذاته بداعف العصبية الصليبية، ومن ثم يضيع الخير الجزيئي الذي اقتبسته من الإسلام.

لقد تأثر شباب النصارى في الأندلس بالوجود الإسلامي هناك، إلى حد أفهم كانوا ينظرون بزيارة إلى كتب اللاهوت المسيحي ويعتبرونها غير جديرة بالالتفات، ولنا أن نتوقع أن تأثيرات مشابهة - ولو كانت على درجة أقل - قد سرت في أوروبا عند احتكاكها بال المسلمين سواء في الحروب الصليبية، أو في الاحتكاك السلمي حين بدأ أوروبا في إرسال مبعوثيها إلى مدارس المسلمين في الأندلس والشمال الإفريقي وصقلية وغيرها من البلاد الإسلامية ليتعلموا العلم، حيث لم يكن هناك علم في الأرض إلا عند المسلمين، وقد رأى النصارى عند احتكاكهم بال المسلمين عالماً مختلفاً تماماً الاختلاف، عالماً لا كنيسة فيه ولا (بابا) ولا رجال دين، إنما فيه علماء يتقهرون في الدين، وغالباً ما يتقهرون في علوم آخر مع العلوم الدينية كالтельف أو الفلك أو الرياضيات... إلخ بلا تعارض بين تقههم هنا وهناك، وليس لهم - مع تقههم - كهانة علي الناس، ولا سلطان، إلا توقير العلماء من أجل علمهم فحسب، ولا وساطة لهم بين الناس وبين ربهم الذي يعلمهم أنه لا وسطاء ولا شفاء عنده، وأنه ما على العباد إلا أن يدعوه، فيستجيب لهم بلا وسيط، قال تعالى: (وَقَالَ رَبُّكُمْ اذْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ...)^(١) (١) وقال تعالى: (وَإِذَا سَأَلَكَ عَبْدٌ يَعْنَى فَإِنَّى قَرِيبٌ أَجِبُ دُعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِي...)^(٢) عندئذ تحركت نفوس الذين يرغبون في الإصلاح لمحاولة إصلاح مفاسد الكنيسة المتراكمة خلال القرون،

(١) مذاهب فكرية معاصرة - محمد قطب ص ٤٨٦ بتصريف.

(٢) الشيخ / محمد عبده في رسالة التوحيد الجزء الثالث تحت عنوان (الإصلاح الفكري والتربوي والإلهيات)، الشيخ / محمد أبو زهرة في كتابه (حضارات في النصرانية)، الشيخ / أمين الخولي في كتابه (صلة الإسلام بإصلاح المسيحية)، د/ محمد أبو حطب في كتابه (مارتن لوثر والإسلام)، د/ زينب عصمت في كتابها (تاريخ أوروبا الحديث)، د/ عبد العزير الشناوي في كتابه (أوروبا مطلع العصور الحديثة) وغيرهم من كتبوا في هذا الموضوع.

(١) سورة غافر من الآية ٦٠.

(٢) سورة البقرة من الآية ١٨٦.

والإيمان المسيحي، وحيث يتم تعلم القواعد العمياء والملحدة لأرسطو أكثر من تعاليم المسيح، وفي هذا الخصوص أنسخ بنيد كتب أرسسطو التي تتعلق بالروح والأخلاق، والتي يتم تعليمها إلى الآن، إن هذه الكتب يجب استبعادها مع بقية كتبه كلها التي تتحدث عن الطبيعة على الرغم من أنه لا يمكن تعلم شيء منها، سواء عن الطبيعة أو الروح.....ووصفها بأنماً كالطاعون الذي أرسل علينا كعقاب على خطيانا.... ووصف كتبه بأنها ضد رحمة الله وكل الأخلاق المسيحية فلتبعد هذه الكتب عن المسيحية ولتبعد المسيحية عن هذه الكتب ^(١)

وإن كان كل ما تقدم يشير إلى وجود تأثيرات من الإسلام على حركات الإصلاح، بما كان من احتكاك بين الإسلام والنصرانية في الأندلس، أو أثناء الحروب الصليبية، أو من خلال المعموظين الأوروبيين إلى بلاد الإسلام، وأنه ما من شك في أن الحضارة الإسلامية قدت الكثير للحضارة الأوروبية، وإن هناك اتصالاً كان بين الدول الأوروبية والدول الإسلامية في تلك الفترة الزمنية من خلاله التعرف على الإسلام.

وقد أكد الأستاذ أمين الخولي في بحثه (صلة الإسلام بإصلاح المسيحية) على تأثر حركة الإصلاح بإسلام إذ ألقى الإسلام بنوره الفياض على العالم الغربي أثناء اتصال الأوروبيين بال المسلمين في الحروب الصليبية، وأن الإسلام لم يكن السبب الوحيد في قيامهم بإصلاح ولكن الأصول التي وجدت في الإسلام جاء بها الإصلاح المسيحي ^(٢)

إلا أن القول بأن أحد الأسباب لقيام دعوة البروتستانتية بالثورة على تعاليم الكنيسة الكاثوليكية هو تأثير الإسلام على دعاهما، أمر يحتاج إلى دليل يبرز من خلاله مدى

١) البروتستانتية وأثرها على العالم الإسلامي - مريم بنت بيان الحربي ص ١ - و، رسالة دكتوراه بكلية الدعوة وأصول الدين جامعة أم القرى ١٤٢٨هـ.

٢) صلة الإسلام بإصلاح المسيحية - أمين الخولي ص ١١، ١٢ بحث قدم وأقيمت حlavatه في مؤتمر تاريخ الأديان الدولي السادس المنعقد بمدين بروكسل سنة ١٩٣٥م ط - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣م.

دراسته لفلسفة العصور الوسطى، والتي كانت متأثرة بالفلسفة الإسلامية، كما أن تعاليم الإسلام ذاعت في أوروبا في أثناء الفترة التي قضها المسلمون في الأندلس وكذلك من خلال الفتوحات العثمانية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وأيضاً (كلفن) الذي نشأ في مدينة نويون، حيث كانت تلك المدينة عرضة للغزوات المستمرة، بسبب موقعها الجغرافي من قبل جيوش المسلمين الآتية من الأندلس، والتي فتحت مدناً كثيرة في فرنسا، وما لا شك فيه أن تلك الجيوش الإسلامية أثرت في النصارى دون أن يشعروا بذلك التأثير، ولكنه ظهر في اعتقادهم في بعض الأمور، والدليل على هذا أن أول ما ظهر من الآراء المناهضة للكنيسة كان مثلاً في القضاء على السلطة البابوية، وكراهية الصور والتتماثيل، وعدم الاعتراف بشفاعة القديسين، أو أي وسيلة أخرى للغفران إلا الإيمان، ومن الطبيعي لا يتحدث أي باحث نصراني عن هذا الأمر، ولا يخفى أن كلفن ولد في إحدى المدن ^(١) التي تأثرت بالفتح الإسلامي للكثير من المدن الفرنسية، ومن ثم تأثر بالأفكار التي غرسها المسلمون في نفوس الفرنسيين دون أن يدرى ^(٢)

ويلاحظ على رأي هؤلاء الباحثين خلو رأيهم من شاهد نصي على تأثر دعوة البروتستانتية بالإسلام، كما أن جل ما اعتمدوا عليه من استدلالات على تأثر البروتستانتية بالإسلام، هو تأثر فلسفة العصور الوسطى بالفلسفة الإسلامية فقط " كما أن فلسفة العصور الوسطى التي كانت متأثرة بالفلسفة الإسلامية والتي كانت هي الأخرى متأثرة بالفلسفة اليونانية وبالخصوص فلسفة أرسسطو قد كان لها جانب إفسادي أكثر مما هو إصلاحي في الكنيسة يقول مارتن لوثر بعد أن رأى أثر كتب أرسسطو في إفساد الكنيسة الكاثوليكية والتي تلزم بتعلم كتب أرسسطو في كثير من الأديرة: " يتم تعليم القليل من الكتاب المقدس

١) مدينة نويون في إحدى المقاطعات الفرنسية.

٢) الحركة البروتستانتية وأثرها على النصرانية - وجيه محمد زكريا ص ٧٣، ٧٤ رسالة ماجستير مخطوطة بكلية الدعوة الإسلامية جامعة الأزهر ١٤١٣هـ ١٩٩٣م .

وجعلهم على الجادة وإعطائهم من الحق ما أعطته الكتب المقدسة ووصايا رسليهم، وهم لم ينظروا إلى البابا على أنه خليفة المسيح لا يخطئ ولا يأني الباطل إلى قوله، بل ينظرون إلى البابا على أنه كبير المرشدين الوعاظين.

كما إن ثورة الإصلاح لم تعالج الأسباب الحقيقة لنقد المسيحية، فلم يتطرقوا إلى العقائد المسيحية التي هي مثار النقد الأساسي، مثل عقيدة الشفاعة، والتجسيد، والخلاص، بل لم يبحثوا أصل الكتب المقدسة عندهم ومدى صحتها من ناحية السنن والمتن والنسبة، ولذلك ظل الصراع بين الدين والعقل باقيا حتى بعد ثورة الإصلاح البروتستانتي، بل وزاد واشتد، لقد أقنع الإصلاح من يريدون الاقتناع بالوقوف عند حد معالجة ظواهر الأمور، لكنه لم يقنع الذين يريدون الأصول نحن نريد إصلاحاً يعالج الحقائق والجذور وبواطن الأمور، إن إصلاح الفروع لا يغنى العقلاً ولا يشفي غليل الحكماء، إذن ثورة الإصلاح البروتستانتي لم تقض على الكنيسة وعلى مبادئها، وإنما خرجت عليها، واستقلت بنفسها، وهذا لا يعد إصلاحاً^(١)

وكان جديراً بمؤلء المصلحين الذين قرروا أن يأخذوا مذهبهم الديني من كتبهم الصحيحة أن ينظروا في هذه الكتب نظرة فاحصة، ليصلوا إلى الحق الذي بدأوا بالسير إليه من خلال منهجهم الإصلاحي بدلاً من أن يتخذوا أخبارهم وقساوستهم أرباباً من دون الله، وهذا فإن هذه الحركة تعد أقرب الفرق الثلاثة إلى التوحيد، ويظهر تأثيرها بال المسلمين، لكنها لم تصمد أمام الضغط النصراني، فانغمست في الكفر والشرك "إن الحركة الإصلاحية فشلت من ناحية أنها لم تستطع تقويم الكنيسة التي كانت قائمة، ولم تفلح في التغلب على البابا وأفكاره وأتباعه فقنتع بإنشاء كنائس لها تظاهر فيها المبادئ الإصلاحية التي اعتنقها وتركت آلاف الكنائس تسير على التحو الذي كانت تسير عليه من قبل..."

(١) أثر الكنيسة على الفكر الأولي - د / أحمد علي عجيبة ص - ٥٢

معفهم بتعاليم الإسلام، وما هي الآراء وال تعاليم التي رأوها وتبناها خلال تلك المعرفة، وربما لا يصل الأمر إلى التأثر بل إلى مجرد الإعجاب بما كان عليه المسلمون مما شاهده هؤلاء المسيحيون خلال احتكاكهم بالحضارة الإسلامية، والدليل على ذلك عدم دخولهم في الإسلام، وإنما كل ما فعلوه أنهم نبذوا أموراً فرعية في المسيحية ولم يحاولوا إصلاح أصول العقيدة التي حرفت، فهم لم يصلوا في التأثر إلى آخر مداه ومتهاه، ولكن توقيسوا عند حد إصلاح مفاسد الكنيسة.

قلت: وبذلك من الممكن أن يكون الإسلام هو الذي لفت أنظار هؤلاء إلى الرجوع إلى المسيحية ومصادرها الصحيحة قبل أن تشيع فيها البدع والخرافات، وذلك بما قدم للعقل الغربي من علم و معرفة، إذن وجود الصلة محتمل وإن كانت غير مباشرة.

ثانياً: حركة الإصلاح البروتستانتي في الميزان:

كان لحركة الإصلاح البروتستانتي الأثر الكبير في كشف عورات الكاثوليكية، وفضح سلوك القائمين عليها، كما أنها أفسحت المجال أمام العلماء والمفكرين وعامة المؤمنين بالكنيسة في حق فهم الكتاب المقدس، وبالتالي كسرت احتكار رجال الدين لهذا الأمر، مع ما نشأ عن ذلك من آثار سلبية عديدة على النصرانية بوجه عام، وعلى الكتاب المقدس بوجه خاص، حيث تعرض للنقد الشديد والتشكيك في صحة نصوصه، ومع أن البروتستانت قرروا حرية البحث والنظر في الأمور الاعتقادية، إلا أنهم حرموا فيما بعد كالكاثوليك، بل وأصبحت حرية الفكر عندهم مقتصرة فقط على نقد رجال الكنيسة الكاثوليكية، فقد عذبوا رجالاً من أجل عقائدهم ، ومنعوا كتاباً من النشر لأنها تحتوي في نظرهم على ما لا يتفق وتعاليم الكتاب المقدس، فالحركة البروتستانتية كانت لإصلاح الكنيسة لا للقضاء عليها، إلا أنها لم تتعرض بجواهر العقيدة، فلم يكن زعماء هذه الحركة من الغلاة الذين يرمون إلى هدم الكنيسة، ولا إلى محاربة سلطانها بوصف كونها واعظة ومبينة للناس شئون دينهم، ولكنهم كانوا يريدون إصلاح حال الكنيسة ورجالها،

الطريق للأخر" ^(١)

يبين مما سبق أن حركة الإصلاح البروتستانتي لم تستطع أن تحدث تغييراً في الأوضاع الأخلاقية، بل بعد أن فتر حماس حركة الإصلاح البروتستانتي هبطت بالمستوى الأخلاقي بدلًا من أن تسمو به، فكانت الكنائس في العالم المسيحي كلها غارقة في الفجور إلى أذنيها " ولم يتغير الحال بعد حركة الإصلاح ولم يحاول الكرادلة والباباوات إصلاح أخلاقهم وأعمالهم، لأن هذه الحركة في أساسها رد فعل لفواحشهم وفسقهم، لكن البابا بالثالث ١٥٣٤ م الذي عاصر مارتن لوثر عندما كان كاردينالاً أنجب أربعة أولاد غير شرعين ولدوا في قصره " ^(٢)

فالملتب البروتستانتي لم يصل إلى إصلاح أصل العقيدة التي دخلها التحرير، فلم يمس عقيدة التثليث، ولا عقيدة الصليب والقضاء، ولا ألوهية المسيح... ولا غير ذلك من تحريرات جوهرية في الدين، وهذا لم تؤت هذه الحركة الشمار الطيبة التي كان يمكن أن تنشأ عنها.

قلت: إن حركة الإصلاح البروتستانتي قد تكون تأثّرت ولو بوجه من وجوه التأثير البعيد وغير المباشر في محاربتها للاستبداد الكنسي، ودعومها إلى إلغاء الوسائل بين العباد وبين ربهم بالإسلام، ولو أنهم صدقوا مع أنفسهم وأعطوا لعقولهم فرصة للتفكير لأدركوا بطلان ما عليه الكنيسة من العقائد الأخرى، لكن القوم لم يتخلصوا من عقائدهم المحرفة.

والأهم من هذا أن ثورة الإصلاح لم تجرؤ على أن تتناول الجذور والأصول التي كانت وما زالت سبباً في نقد الكنيسة أو بالأحرى سبباً في نقد المسيحية " ^(٣)

وكانت هذه الحركات الإصلاحية فرصة لإعادة المسيحية الأصلية، وإصلاح ما فيها من تحرير جاء به بولس وأتباعه، وجاء على يد الجامع المسيحية، ولكن لم يأت لوثر ومصلحون آخرون بتغيير جذري في العقائد المسيحية المألوفة " بل إن مارتن لوثر نفسه أيد العقيدة البولسية (النجاة عن طريق الإيمان) وهذه العقيدة تكمن في الإيمان بفداء المسيح المزعوم، وأما العمل فليس له أهمية " ^(٤)

يقول الإمام محمد أبو زهرة: " إذا كان المصلحون قد قرروا أن يأخذوا مذهبهم الديني من الكتب المقدسة - عندهم - وقرروا أن يرفضوا سلطان الجامع والكنيسة معاً، فإن المنطق الذي يسيرون عليه كان يوجب عليهم أن يرفضوا أقوال الجامع القديمة، ومنها ألوهية المسيح، وألوهية الروح القدس... ولكنهم لم يسيروا في منطقهم إلى أقصى مداه، فرفضوا آراء الكنيسة في أمور... ولم يتوجهوا إلى لب العقيدة " ^(٥)

فرعماً حركة الإصلاح الديني كانوا لا يقلُّون تعصباً عن رجال الكنيسة الكاثوليكية إن لم يزيدوا عليها، ولذلك فإنهم هاجموا النظريات العلمية واضطهدوا من يقول بها، فكما حاربت البروتستانتية النظريات العلمية المخالفة لنصوص الكتاب المقدس، كذلك حارت العقل واضطهدت من حاول التوفيق بين العقل والكتاب المقدس.

ويذكر صاحب كتاب (قصة الحضارة تصريحات مارتن لوثر تبين تطرفه في إنكار العقل، حيث يقول: "أنت لا تستطيع أن تقبل كلاماً من الإنجيل والعقل، فأحدهما يجب أن يفسح

(١) المسيحية - د / أحمد شليبي ص ٢٥٤ بتصريف ط العاشرة ١٩٩٨ م مكتبة النهضة المصرية.

(٢) المسيحية النصرانية - ساجد مير ص ٨٧.

(٣) محاضرات في النصرانية - محمد أبو زهرة ص ١٧٢.

(٤) قصة المضاربة ول ديوانت ج ٢٣ ص ٢٢٣.

(٥) المسيحية النصرانية - ساجد مير ص ١٠١.

فضبت الكنيسة التعليم بصبغة كهنوتية، وأبعدت أي علم لا يخدم مصلحتها ومكاسبها. سادساً: تدخل القساوسة والبابوات في شؤون الحكم، وتسبب ذلك في إثارة التزاع بين البابوات والحكام، وأنكر رجال الإمبراطورية السمو البابوي المطلق وقالوا: إن للإمبراطور سلطاناً مطلقاً مورثاً ولا ينسخ وليس من حق الكنيسة أن تتدخل في هذا الأمر مما أشعل الصراع بين الكنيسة والإمبراطورية قروناً طويلاً.

سابعاً: كان الاستبداد الاقتصادي من المأخذ الذي تؤخذ على الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا، والتي كان لها أثر كبير في قيام ثورة الإصلاح الديني بقيادة مارتن لوثر في أوائل القرن السادس عشر الميلادي، وهذا الاستبداد المالي من الكنيسة كان من أهم هذه المأخذ، إذ كانت الكنيسة حينئذ تتمتع بالثراء الفاحش، كما كان يتمتع رجال الكنيسة بثروات طائلة تفوق في كثير من الأحيان ثروات الدول والملوك، واحتزت البابوات وأعواهم طرقاً كثيرة لص دماء الناس من الضرائب، وبيع المناصب بالمال، وصكوك الغفران.

ثامناً: كان الغالبية من رجال الكنيسة يعيشون حياة الترف واللذات والشهوات، مع أن المفروض فيهم أن يكونوا في أعلى درجات الإيمان والطهارة، لكن تدهورت المستويات الأخلاقية وتفشت حالات الفساد والانحطاط بين رجال الدين المسيحي في العصر الوسطي.

تاسعاً: لقد نصب رجال الكنيسة أنفسهم لمعرفة الحقيقة في كل أمور الدين والدنيا، واعتبروا أي مصدر آخر غيرهم وغير ما تحت أيديهم من كتب مقدسة - في نظرهم - لا يعتد بها، بل وعاقبوا كل من تسول له نفسه الخروج عليهم، ووقفت الكنيسة بالمرصاد لكل فكر مختلف لها، ولكل صاحب رأي مغاير لرأي رجالها الذين أعطتهم وحدهم سلطان التأويل والتفسير، ولم تكتف بذلك بل وقمعت المارقين، وأقامت محكم التفتیش التي استخدمت كل أساليب القهر والتعذيب والتي تعتبر من أشنع الوصمات في تاريخ البشرية.

الخاتمة

وبعد أن انتهيت من هذه الدراسة التي تناولت فيها حركة الإصلاح البروتستانتي، وهي من الحركات المؤثرة في المسيحية، يمكن في خاتمة هذا البحث المتواضع أن أوجز أهم النتائج التي توصلت إليها، وهي كما يلي:

أولاً: كانت حركة الإصلاح تعنى بإصلاح الكنيسة وإنقاذهما من التراثات الدينوية التي استغرقت فيها، ومن القضايا اللاهوتية التي لم تعد ذات قيمة وأهمية، ولقد كانت ولادة حركة الإصلاح الديني في القرن السادس عشر حصيلة عدة عوامل دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية وأخلاقية وفكرية.

ثانياً: قام البابوات بخداع الناس، وذلك باختراع تعاليم وأسرار لا تخصى، صرفاً بها الناس عن التوجه لله وحده مباشرة، وجاءوا عوضاً عن ذلك بعقائد ومبادئ لا صلة لها بالدين القويم، وقالوا بوجود أسرار خفية لكل عقيدة، وسموها بالأسرار الكنسية السبعة، وهذه الأسرار شكلت ضغطاً روحياً على النفوس.

ثالثاً: تسلم رجال الكنيسة سلطة دينية عظيمة، تكاد تكون سلطة مطلقة، دون أن يكون لديهم دين صحيح ثابت. بمصادر صحيحة، ومنح هؤلاء لأنفسهم العصمة عن الخطأ فيما يقررون من أحكام، فكانوا بذلك أرباباً من دون الله، يحملون ويحرمون لشعب الكنيسة بحسب آرائهم وأهوائهم، وما يرون من مصالح لأنفسهم ولخدمة المسيحية المحرفة الأصول، دون أن يكون لأحد مهما كان عالماً بالدين أن يتعرض على قرارات المحاجع، أو قرارات البابا وأوامره ونواهيه.

رابعاً: لم تكتف الكنيسة بفرض هيمنتها وطغيانها على الصفاء الروحي، بل أغلقت جميع المنافذ المؤدية إلى إتاحة الطريق أمام السالكين، وعطلت كل فكر يمس فكرها وأسرارها من قريب أو بعيد.

خامساً: امتد الطغيان الروحي والعقلي ليشمل المجال العلمي أيضاً لتسيطر عليه الكنيسة،

ولا يحس بها خاطر، وبذلك يظهر أن هذه الحركة الإصلاحية تأثرت بامتداد التعاليم الإسلامية، التي ليس فيها خرافة الاعتراف والغفران أمام أحد من الناس.

خامس عشر: كانت هذه الحركات الإصلاحية فرصة لإعادة المسيحية الأصلية، وإصلاح ما فيها من تحريف جاء به بولس وأتباعه، وجاء على يد المجمع المسيحي، ولكن لم يأت لؤلؤ والمصلحون الآخرون بتغيير جذري في العقائد المسيحية المألوفة، ولم تستطع حركة الإصلاح أن تحدث تغييراً في الأوضاع الأخلاقية، بل بعد أن فتر حماس حركة الإصلاح البروتستانتي هبطت بالمستوى الأخلاقي بدلاً من أن تسمو به.

سادس عشر: حركة الإصلاح الديني البروتستانتي لها آثارها المعاصرة في عالم اليوم، ويشهد على ذلك انتساب قطاعات كبيرة من النظام العالمي الجديد إلى الكنائس البروتستانتية المختلفة، فاليسجية الأكثر تأثيراً في عالم اليوم هي المسيحية البروتستانتية، على العكس مما كان عليه الحال في القرون الوسطى — أعني المسيحية الكاثوليكية — على الرغم من أن بابا روما لا يزال يحتفظ بمكانة دينية وأدبية على قطاعات واسعة، من جمهور الكاثوليك في شتى أصقاع العالم.

وبعد.... فبهذا العمل المتواضع، والجهد القليل، أكون قد أقيمت الضوء على حركة من الحركات الإصلاحية المسيحية (حركة الإصلاح البروتستانتي) فإن كنت قد وفقت بفضل من الله، وإلا فالعصمة لله وحده ولأنبيائه، والله من وراء القصد، وهو الهدى إلى سواء السبيل، وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

د/ خالد محمد حمدي صميدة

مدرس الدعوة والثقافة الإسلامية

بكلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية

عاشرًا: هناك حركات عديدة ظهرت في أوروبا لتعارض الكنيسة وتظهر عيوبها ومساوئها وتنتقدتها، ففي الفترة من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر ظهرت أكثر من حركة مناهضة للكنيسة، حيث أعلنت هذه الحركات سخطها على الكنيسة، واحتاجت على ما فرضته من قيود، ووجهت السهام النقدية إليها في محاولة لإصلاحها وإصلاح أحوال رجالها القائمين عليها، وكان أول ظهور لهذه الشخصيات من بين رجال الكنيسة نفسها، فهم لذلك أدرى بحالها المتردي.

حادي عشر: تكونت على صيحات لوثر ديانة جديدة وهي مسيحية أيضاً تسمى (بروتستان) يعني المعارضون، وكان معه ثائرون ضد المسيحية الكاثوليكية فكان في سويسرا (زونجلي) وكان بعده (كلفن) الفرنسي، وشكلت هذه الحركة الجديدة حدثاً تاريخياً هاماً في الحياة المسيحية، فقد أفلحت في تعليم فكر الإصلاح على عدد من البلاد الأوروبية، ووضع أساس الانفصال عن الإمبراطورية الرومانية وكنيستها البابوية، وإنشاء كنائس وطنية إنجيلية في معظم البلاد الأوروبية.

ثاني عشر: لقد ذاعت الآراء الإصلاحية، وانتشرت في أرجاء أوروبا، وكان لقادة الإصلاح أثر في فضح الكنيسة وكشف عيوبها وعيوب القائمين عليها، إلا أن الكنيسة لم تتأثر كثيراً بهؤلاء المصلحين، مما استطاعوا إصلاح حالها، لأنها كانت تصدر قرارات الحرمان لكل من تسول له نفسه المساس بالكنيسة ورجالها.

ثالث عشر: قامت الحركة الجديدة (حركة الإصلاح البروتستانتي) بإنشاء كنائس لأتباعها سميت بالكنائس البروتستانتية، وهذه الكنائس لم تعرف لكنيسة روما بأي سلطان، كما سميت الكنائس البروتستانتية بالكنائس الإنجيلية، وذلك لأنها لا تخضع إلا لحكم الكتاب المقدس.

رابع عشر: كان من آثار الحضارة الإسلامية في نفوس مثقفي أوروبا، تلك البساطة التي رأوها في عبادات الإسلام، التي يقابلها في التعبد الكنسي طقوس معقدة لا يقبلها عقل،

- ١٤ - التاريخ الأوروبي الحديث - د / عبد الحميد البطريق.
- ١٥ - تاريخ العرب - غوستاف لوبون.
- ١٦ - تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط - يوسف كرم ص ١٥٣ - ١٦٠ .
- ١٧ - تاريخ الكنيسة - جون لوريمير ط الأولى دار نوبار للطباعة القاهرة ١٩٩٠ .
- ١٨ - تراث الإسلام - الفريد هيوم.
- ١٩ - تفسير القرآن العظيم - ابن كثير ط مكتبة دار التراث.
- ٢٠ - الجانب المظلم في التاريخ المسيحي - هلين إيليري ترجمة د / سهيل زكار.
- ٢١ - حديث مع جون كلفن - لبيب مشرقي.
- ٢٢ - الحركة البروتستانتية وأثرها على النصرانية - وجيه محمد زكريا ص ٧٣ ، ٧٤ رساله ماجستير مخطوطه بكلية الدعوه الإسلامية جامعة الأزهر ١٤١٣ هـ ١٩٩٣ م .
- ٢٣ - الخلاص من الخطيئة - محمد عبد الرحمن عوض ط دار البشير القاهرة.
- ٢٤ - رؤية في سقوط الإمبراطورية الرومانية - د / محمود محمد الحموي ط دار المعارف سنة ١٩٨١ م.
- ٢٥ - الرهبانية المسيحية وموقف الإسلام منها د / أحمد علي عجيبة ط دار الآفاق العربية ط الأولى ٢٠٠٤ م.
- ٢٦ - سنن الترمذى - الإمام الترمذى ط دار إحياء التراث العربي.
- ٢٧ - صحيح البخاري - الإمام البخاري ط ط دار ابن كثير اليمامة بيروت ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م.
- ٢٨ - صحيح مسلم - الإمام مسلم ط الأولى دار الفكر للتراث ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م.
- ٢٩ - عالم العصور الوسطى - كلتون - ترجمة جوزيف نسيم ط مؤسسة شباب الجامعات ١٩٨٣ .

قائمة بأهم المراجع

- ١ - أثر الكنيسة على الفكر الأوروبي - د / أحمد علي عجيبة ط الأولى دار الآفاق العربية ٢٠٠٤ م.
- ٢ - أثر الإسلام على حركة الإصلاح البروتستانتية - د / محمد الشاهد مقال في مجلة البيان تصدر عن المنتدى الإسلامي بلندن العدد ٢٢٢ .
- ٣ - الإرساليات التبشيرية - د / عبد الجليل شلبي.
- ٤ - الأسس العقدية لظاهرة الرهبة - عمر وفيق الداعوق رسالة دكتوراه بكلية الدعوة وأصول الدين جامعة أم القرى ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م.
- ٥ - أضواء على الإصلاح الإنجيلي - فايز فارس ط القاهرة الحديثة.
- ٦ - إظهار الحق - رحمة الله الهندي ط الثالثة دار الحديث ١٤١٤ هـ ١٩٩٤ م.
- ٧ - أوروبا العصور الوسطى د / سعيد عبد الفتاح عاشور ط مكتبة الأنجلو ١٩٨٠ م.
- ٨ - أوروبا في مطلع العصور الحديثة - د / عبد العزيز الشناوي ط الثانية ١٩٧٥ م.
- ٩ - البروتستانتية وأثرها على العالم الإسلامي - مريم بنت بنیان الحربي ج ١ ص ٦، رساله دكتوراه بكلية الدعوة وأصول الدين جامعة أم القرى ١٤٢٨ هـ .
- ١٠ - تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر - د / عبد الفتاح أبو عليه وزميله ص ٩٨ ط دار المريخ.
- ١١ - تاريخ أوروبا العصور الوسطى - فشر - ترجمة محمد مصطفى زيادة، السيد الباز العربي ط دار مصر ١٩٦٦ م.
- ١٢ - تاريخ أوروبا في العصور الوسطى - سعيد عبد الفتاح عاشور ط دار النهضة العربية ١٩٧٦ م.
- ١٣ - التاريخ الأوروبي الحديث - د / عبد العزيز سليمان نوار وزميله ط دار الفكر العربي ١٤١٩ هـ ١٩٩٩ م.

- ٤٧ - المسيحية الرابعة - د / رؤوف شلي ط مكتبة الأزهر ١٩٨٠ م.
- ٤٨ - معالم تاريخ الإنسانية - ويلز - ترجمة عبد العزيز توفيق جاود ط الثالثة لجنة التاليف والترجمة مصر ١٩٦٧ م.
- ٤٩ - مفاتيح الغيب - الفخر الرازي ط الأولى دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٨١ م.
- ٥٠ - منهج القرآن في بناء المجتمع - الشيخ محمود شلتوت ط كتاب الهلال ١٩٨١ م.
- ٥١ - الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة - د / مانع بن حماد الحهني ط - الرابعة ١٤٢٠ هـ.
- ٥٢ - موقف الإسلام والكنيسة من العلم - عبد الله الشوخي ط الأولى مكتبة المدار الزرقاءالأردن ١٤٠٢ هـ.
- ٥٣ - النصرانية نشأتها التاريخية وأصول عقائدها - د / عرفان عبد الحميد فتاح ط - الأولى ١٤٢٠ هـ ٢٠٠٠ م دار عمار للنشر.
- ٥٤ - النهضة الأوروبية - سدني دارك ترجمة وتعليق محمد بدران ط - لجنة التاليف والترجمة والنشر ١٩٤١ م.
- ٥٥ - المروقة في المسيحية - ويلتر ترجمة جمال سالم ط - دار التدوير للطباعة والنشر بيروت.

- ٣٠ - العبادة المسيحية - الارشندرية الياس ط - مؤسسة خليفة للطباعة لبنان ١٩٨١ م.
- ٣١ - الفكر السياسي الأوروبي في العصور الوسطى - د / رافت عبد الحميد.
- ٣٢ - قاموس الكتاب المقدس - مجموعة من أساتذة اللاهوت ط - ٦ دار الثقافة ١٩٩١ م.
- ٣٣ - قصة الحضارة - ول دبورانت ط - لجنة التاليف والترجمة والنشر ١٩٦٤ م.
- ٣٤ - قصة الصراع بين الدين والفلسفة - د / توفيق الطويل ط - الثالثة دار النهضة العربية ١٩٧٩ م.
- ٣٥ - كواشف زيف في المذاهب الفكرية المعاصرة - عبد الرحمن حبكة.
- ٣٦ - ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين - أبو الحسن التدوبي ط العاشرة دار الأنصار القاهرة.
- ٣٧ - مارتن لوثر والإسلام - د / محمد أبو حطب ط - المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٨ م.
- ٣٨ - محاضرات في النصرانية - محمد أبو زهرة ط - الثالثة دار الفكر العربي.
- ٣٩ - محاكم التفتيش نشأتها ونشاطها د / إسحاق عبيد ط - الأولى ١٩٧٨ م دار المعارف.
- ٤٠ - مختصر تاريخ الكنيسة - أندرو ملر ط - الثانية ١٩٧٢ م.
- ٤١ - مذاهب فكرية معاصرة - محمد قطب ط - الأولى دار الشروق ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م.
- ٤٢ - المستشرقون - نجيب العقيقي ط - دار المعارف.
- ٤٣ - المسيحية - د / أحمد شلي ط العاشرة ١٩٩٨ م مكتبة النهضة المصرية.
- ٤٤ - المسيحية النصرانية - ساجد مير ط - دار السلام للنشر والتوزيع بالرياض.
- ٤٥ - المسيحية في عصر الإصلاح - د / عزت زكي ط - دار التاليف والنشر للكنيسة الأسكندرية ١٩٨٠ م القاهرة.
- ٤٦ - المسيحية في العصور الوسطى - جاد المنفلوطي ط - دار التاليف والنشر للكنيسة

٨٧٠	إرازمس
٨٧٣	سافونارولا
٨٧٥	الفصل الثالث: زعماء الإصلاح البروتستانتي
٨٧٥	أولاً: مارتن لوثر
٨٨٦	ثانياً: أولريخ زونجلبي
٨٩٢	ثالثاً: جون كلفن
٨٩٦	الفصل الرابع: مبادئ حركة الإصلاح البروتستانتي
٩٠٣	الفصل الخامس: مدى تأثير حركة الإصلاح البروتستانتي بالإسلام
٩٠٣	أولاً: صلة حركة الإصلاح البروتستانتي بالإسلام
٩١٠	ثانياً: حركة الإصلاح البروتستانتي في الميزان
٩١٤	الخاتمة
٩١٨	المراجع
٩٢٢	فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الموضوع	
الصفحة	
٨١٥	مقدمة
٨١٨	تمهيد
٨٢٠	الفصل الأول: عوامل قيام حركة الإصلاح البروتستانتي
٨٢٠	أولاً: استبداد الكنيسة
٨٢٠	١ - الاستبداد الديني
٨٢٧	٢ - الاستبداد العقلي والفكري
٨٣٢	٣ - الاستبداد السياسي
٨٣٧	٤ - الاستبداد المالي والاقتصادي
٨٤٤	ثانية: السلوك التردي لرجال الكنيسة
٨٥٠	ثالثاً: محاكم التفتيش
٨٥٤	رابعاً: صكوك الغفران
٨٥٨	خامساً: العشاء الرباني
٨٦١	الفصل الثاني: المصلحون المهددون للإصلاح
٨٦١	نقد الكنيسة
٨٦٢	غاذج من الحركات والشخصيات التي نقدت الكنيسة
٨٦٣	الكاثاريون
٨٦٥	الولدائيون
٨٦٦	جون ويكلف
٨٦٨	جون هس
٨٦٩	يوحنا روكلين